أدب الرَّسائل الإخوانيَّة في العصر العبَّاسي الأول

(دراسة فنية)

رسالة تقدم بها

سمير عبد السَّلام حاجي

إلى

مجلس كلية التربية الأساسية بجامعة الموصل

وهي جزءٌ من متطلبات نيل شهادة الماجستير

في الأدب العربي

بإشراف

الأستاذ المساعد

الدكتورة ساهرة محمود يونس الحبيطي

1431هـ 2010م

الدراسة الموضوعية

توطئة

كان بديهِيَّاً أنْ تتعدَّدَ أغراض الرَّسائل ، وتتباين مقاصدها وفقاً لما دعت إليه الحاجة ، وما اقتضاه مقام إنشائها.

لقد نَمَت الرَّسائل الإخْوانِيَّة في العصر العَبَّاسِي نموَّاً واسعاً ، تلك الرسائل التي تصوِّر عواطف الكتَّاب ومشاعرهم ، من تهنئة أو تعزية ، ومِن عتابٍ واعتذارٍ واستعطاف ، ومديحٍ وهجاء وغير ذلك ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى في العصر الأموي شِعراً ، أمَّا في العصر العَبَّاسِي فقد زاحم فيها النَّثر الشِّعر بكمٍّ هائِلٍ منَ النتاج النَّثري ، ولا سِيَّما الرَّسائل الإخْوانِيَّة ، وأتاح لوفرة ذلك النتاج ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يُجيدون كتابة الرسائل إجادة رائعة ، إذْ كانوا على ثقافةٍ واسعة ، وكانوا يُعْنَونَ بتحبير كلامهم وتجويدهِ وحشْد كلِّ ما يمكن فيه مِن عنايةٍ فنيَّة ، فضلاً عن ذلك مرونة النَّثر ويُسْرِ تعابيرهِ وقُدْرَتِه على تصوير المعاني بمضَامِينها كافَّة ، قدرةً لا تُتاح للشِّعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقَّدة من وزن وقافية[1].

يقول الدكتور محمد نبيه حجاب عن الرسائل الإخْوانِيَّة والتي يسمِّيها بالرسائل الخاصة: (هي تلك الرسائل الشخصية التي كانت تحبَّر بعيدة عن الديوان إلى أحد الإخوان في أمور خاصة لا تتعلَّق بشؤون المُلك ، ولا بسياسة الدولة ، أو تتعلَّق بها بصفة غير رسمية ، كالتهنئة والتعزية ، والشكوى ، والعتاب ، والاستعطاف ، وغير ذلك ممَّا يصوِّر العواطف الخاصة بقدر ما بين الأفراد من روابط وصِلات ، ومن ثمَّ كانت أدخل في الناحية الفنيَّة من الرسائل العامة "الرَّسمية" فهي أفسح منها مجالا ، لا يحدُّها إلاّ ذوق الأديب. أغراضها جمّة وأساليبها منوعة وكاتبها حرٌّ طليق ؛ إن أردتها جادَّة كانت عين الجِد ، وإن أردتها مرحة كانت ذوب الفكاهة ، بل إن شئت كانت أرق من الماء وألطف من الهواء ، وإن شئت كانت أقسى من الصخر ، وأصلب من الحديد ، فما أشبهها بالشعر إلاّ أنَّه موزون مقفَّى)[2].

---

(1) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط 5 ، 1975م : 491.

(2) بلاغة الكتَّاب في العصر العَبَّاسِي ، محمد نبيه حجاب ، المطبعة الفنية الحديثة ، ط 1 ، 1385هـ . 1965م : 99.

إنَّ الرسائل الإخْوانِيَّة التي وقفتُ عليها والمبْثوثة في ثنايا أمَّهاتِ الكتبِ الأدبيةِ والتاريخية، قد أدرجتها في موضوعات وتمَّ تناولها بحسب الكم الذي تضمَّنته مجموعاتها ، إذ بدأتُ بالمضمون الأكثر عددا ثمَّ الأقل وهكذا... ، وذلك من تاريخ قِيام دولة بني العبَّاس (132هـ) وحتّى سيطرة بني بويه على بغداد (334 هـ) ، وجاءت في سبعة مضامين ، كلَّ واحد مستقلٌّ عن الآخر:

المبحث الأوَّل

التَّهاني:

المُراد بها تلك الرسَّائل التي تكتب لتعبِّرَ عن حدَثٍ سعيد ، أو مناسبةٍ معيَّنة تستدعي التراسل ، وقد أكثرَ الكتَّاب (من التهاني مع كلّ مناسبة ، فهم يهنِّئون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهنِّئون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يُهنِّئون بالزَّواج وعقد القِران ، وهم يُهنِّئون بإنجاب الأولاد ، وهم يُهنِّئون بحكم الولايات ، وهم يهنِّئون بنعمة الحج وقضاءِ مناسِكِه ، وهم يُهنِّئون بالظفر على الأعداء)[1]. ولهذه الرسائل أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية ، لأنَّها تَسْبُك العلاقة بين الأفراد ، وهي أولى من التعزية كما قال الكاتب سهل بن هارون: (التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة)[2]. ولذلك اتَّسم هذا اللون من الرسائل بالبلاغة وجمال الأداء ، والإسهاب في بعض الأحيان ، بحسب ما يقتضيه المقام[3] ، ويعود السبب في ذلك (إلى ما في التهنئة البليغة ، بصورة خاصة ، من الإفصاح بقدر النعمة ، والإبانة عن موقع الموهبة ، وتضاعف السرور بالعطية)[4].

وقد اطَّلَعْتُ على رسائل كثيرة لعددٍ كبير من الكتَّاب ، كُتِبتْ في مناسباتٍ مختلفة ، وكان الاختيار مبنيَّاً على انتقاء عدد منها ، وتشمل:

أولاً : التَّهنئة بالفتوحات:

تعدُّ مِن أجلِّ المناسبات وأعظمها قدْراً ، عند الخاصة والعامة ، لأنَّ الفتوحات التي تتمُّ بتوفيق الله وحفظه ، على يدِّ الخليفة العَبَّاسِي أو القائد الذي يمثِّله ، تدعو بالضرورة إلى تحبير أفخم الرسائل وأبلغها ، لحمدِ الله والثناء عليه ، وتهنئة من أتمّ الله على يديه ذلك الفتح.

(1) تاريخ الأدب العربي (العصر العبَّاسي الأوَّل) : 500.

(2) البيان والتَّبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) ، تحقيق: عبد السَّلام هارون ، دار الفكر للجميع ، 1968م : 2 / 269.

(3) ينظر: الرَّسائل الفنية في العصر الإسلامي حتّى نهاية العصر الأموي : 303 . 305.

(4) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : 9 / 5.

وقد اسْتَرْسل الكتَّاب العبَّاسِيُّون في الكتابة بهذا الموضوع فهذا إبراهيم بن المهدي[1] كتبَ رسالةً في التهنئة بفتح عمورية (223 هـ) إلى الخليفة المعتصم ، يقول فيها :

(الحَمْدُ لله الذي تمَّمَ لأميرِ المؤمنينَ غَزْوَتَهُ فأذلَّ بها رِقَابَ المُشركِين ، وشَفَى بها صُدُورَ قَومٍ مُؤمِنين ، ثم سَهَّلَ الله له الأَوْبَةَ سالِماً غانِما ، (وكذا وكذا) ولْيَهْنِئْهُ ما كَتَبهُ الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لِيَقَفَه به موقِفاً يرضاه ، فإنّه عزّ وجل يقول : (إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُوْنَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْراةِ والإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ، فاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ)[2].

فَطوَى اللهُ لأمير المؤمنين نازِحَ البُعْدِ بَرّاً وبَحْرا ، ووقاه وَصَب السَّفَر سَهلا وَوَعْرا ، وحاطه بحِراسته كالِئا[3] **، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيَه إلى المحَلِّ من داره ، والوَطنِ من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصَّةً ، وعن رعِيَّتِه كافةً...)**[4].

نجد في هذا النص أنَّ الكاتب ابتدأ بحمد الله على فضله العظيم ونصره للخليفة ، كما نجِدُ ذكر الله . عزّ وجل . في جميع أجزاء النص ، إذْ لم يخلُ من لفظ الجلالة ، وهذه إشارةٌ (إلى قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته في الحفاظ على الخليفة ورعايته له ولجيشه من كلِّ مكروه)[5] ، وفيه

---

(1) إبراهيم بن المهدي : هو إبراهيم بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أبو إسحاق ، أخو الخليفة هارون الرشيد ويعرف بابن شكلة ، بويع بالخلافة ببغداد في أيام المأمون فتوجه نحوه حميد الطوسي فقاتله فهزمه حميد ، واستخفى إبراهيم مدة طويلة حتى ظفر به المأمون فعفا عنه. وكان أسود حالِك اللون عظيم الجثة ، ولمْ يُرَ في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أجود شعرا ، توفي في خلافة المعتصم سنة 224 هـ. (ينظر: تاريخ بغداد : 6 / 142. و وفيات الأعيان : 1 / 39).

(2) سورة التوبة : الآية 111.

(3) كالِئاً : أي حارِساً وحافِظاً ، يقال كَلأَكَ اللّه كِلاءة أَي حَفِظَك وحرسك. (لسان العرب : مادة كَلأَ : 1 / 145).

(4) جمهرة رسائل العرب ، أحمد زكي صفوت ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر ، ط 1 ، 1356 هـ . 1937م : 4 / 8 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور ، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بإبن طيفور (ت 280 هـ) : 13 / 298.

(1) النَّثر الجهادي في العصر العَبَّاسِي حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، ساهرة محمود يونس ، رسالة دكتوراه ، جامعة الموصل . كلية الآداب ، 1419هـ . 1998م : 45.

تأكيد على فضل الله تعالى لأنَّه نصر المؤمنين الذين يبتغون رضاهُ ، ونظراً لأنَّ الفتوحات التي قادها الخلفاء والأمراء العبَّاسيُّون كانت . بشكلٍ عام . ذات طابع ديني ، فقد اقتبس الكاتب آيةً كريمةً من القرآن الحكيم ليعزِّزَ بها تهنئته التي يستحقُّها الخليفة ومن معه. يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة : (يخبر تعالى أنه عوَّضَ عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم)[1]. ولله درُّهُ كاتِباً بليغاً فما يزال لسانه رطباً بذكر الله وحمده على نصره للخليفة ولعامة المؤمنين.

وعلى الشاكلة نفسها نلتقي مع رسالة أحمد بن يوسف[2] الذي كتبها إلى عبد الله بن طاهر[3] عند خروج عبد الله بن السريِّ إليه ، يهنِّئه بذلك الفتح : **(بَلَغَنِي . أَعَزَّ اللهُ الأميرَ . ما فَتَحَ اللهُ عليك ، وخروجُ ابن السَّريّ إليك ، فالحمدُ لله الناصرِ لِدينهِ ، المُعِزِّ لِدَولة خليفَتِهِ على عِبادِه ، المُذِلِّ لِمَنْ عَنَد[4] عنهُ وعن حَقِّهِ ، وَرَغِبَ عن طاعَتِهِ ، ونسألُ الله أنْ يُظَاهِرَ لهُ النِّعَمَ ، وَيفتحَ لَهُ بُلْدَانَ الشِّرك ، والحمدُ لله على ما وَلِيَكَ به مُذْ ظَعَنْتَ[5] لِوَجْهكَ ، فإنَّا وَمَن قِبَلَنا نَتَذاكَر سِيرَتَكَ في حَرْبكَ وسِلْمِكَ ، ونُكْثِر التعجُّبَ لِما وُفِّقتَ له من الشدة واللِّيان في مَواضِعِهما**

---

(2) تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774 هـ) ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط 2 ، 1420 هـ . 1999م : 4 / 218.

(3) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أبو جعفر الكاتب ، من أهل الكوفة ، مولى بني عجل ، كان من أفضل كتّاب المأمون وأذكاهم وأفطنهم وأجمعهم للمحاسن وكان جيد الكلام فصيح اللسان حسن اللفظ مليح الخط يقول الشعر في الغزل والمديح والهجاء ، وله شعر حسن وبلاغة ، وكان أحمد وأخوه القاسم، شاعرين ، أديبين ، وأولادهما جميعا أهل أدب ، وله أخبار مع إبراهيم بن المهدي وأبي العتاهية وغيرهم، توفِّيَ سنة 213 هـ. (ينظر: تاريخ بغداد : 5 / 216. و معجم الأدباء : 5 / 161).

(4) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الأمير العادل أبو العبّاس الخزاعيّ المصعبيّ ، أمير إقليم خراسان وما يليه ، كان بارع الأدب ، حسن الشّعر ، تنقل في الأعمال الجليلة شرقاً وغرباً. قلّده المأمون مصر والمغرب ، ثم نقله إلى خراسان. توفِّيَ بنيسابور وقيل بمرو سنة 230 هـ. (ينظر: تاريخ بغداد : 9 / 483. و تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : 16 / 229. و وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : 3 / 83).

(5) عَنَد : عَنَدَ الرجلُ يَعْنُد عَنْداً وعُنُوداً وعَنَداً عتا وطَغَا وجاوزَ قَدْرَه ورجل عَنِيدٌ عانِدٌ وهو من التجبُّرِ. (لسان العرب ، مادة عَنَدَ : 3 / 307).

(1) ظَعَنْتَ : ظَعَنَ يَظْعَنُ ظَعْناً وظَعَناً بالتحريك وظُعوناً : ذهب وسار. (لسان العرب ، مادة ظَعَنَ : 13 / 270).

، ولا نَعْلمُ سائِسَ جندٍ ورعيـةٍ عَدَلَ بينـهم عَدْلَك ، ولا عَفـا بعد القدرة عمَّن آسَـفَه[1] وأضْغَنَه عَفْوَك ، وَلَقَلّما رأَيْنا ابن شَرَفٍ لم يُلْقِ بيده متَّكِلا على ما قَدَّمَتْ لـه أُبُوَّتـُه ، ومن أوتـيَ حَظّـاً وكِفاية وسلطانا وولايـةً ، لم يُخْلِد إلى ما عَفَا له[2] حتّى يُخِلَّ بِمُساماةِ ما أمامَـه ، ثـمَّ لا نعلَم سائِساً استحَقَّ النُّجحَ لِحُسْنِ السيرة ، وكفِّ مَعَرَّة الأتْباعِ ، استحقاقَك ،...)[3].

نلحظُ أنَّ الكاتب لم يبدأ هذا النَّص بِمقدِّمة مثلما وجدْنا في النَّص السابق ، فقد أثنى الكاتب في هذا النص على الأمير عبد الله بن طاهر ، وهنَّأهُ بالنصر وبدخولهِ مصر ، وخروج ابن السرِّيِّ إليه طالباً الأمان ، وقد أكثر الكاتب من ذكر الله . عزّ وجلّ . وشكر نِعَمه ، والثناء عليه ، لأنَّه نصرَ أهل الحق ، وأذلَّ أهل الباطل. وأفاض الكاتب بمدح الأمير ، وذِكر خصاله الحميدة التي جعلته مُستَحقَّاً لتلك المكانة الجليلة التي وصل إليها لدى الخاصة والعامة ، ويشيدُ النُّويري بأهمِّية رسائل التهنئة بالفتوح قائِلاً: (وإذا كُتِب في التهاني بالفتوح ، فليس إلاَّ بَسْط الكلام ، والإطناب في شكر نِعَمِ الله ، والتبرؤ من الحول والقوة إلاَّ به ، ووصفُ ما أعطى من النصر ، وذِكرُ ما مَنَحَ من الثبات ، وتعظيم ما يسَّرَ من الفَتْح ،...)[4]. والذي نراه أنَّ هذا التمجيد بالتَّهاني في الفتوحات ينطبِقُ على مضامين النُّصوص الآنفة الذِّكر.

ثانياً : التَّهنئة بالإسلام :

نجد مناسبات جليلة أخرى تستدعي تحبير الرَّسائل ، فالتَّهْنئة بإسْلامِ أهْل الذِّمة وغيرهم من الَّذين تَرْبِطُ بينهم وبين من يكتبون إليهم أواصر الصَّداقة والمحبَّة تُعدُّ من الموضوعات المهمَّة ، لأنَّها تُعبِّر عن مشاعِرَ صادقة يحملها الكاتب لصديقه الَّذي هداه الله إلى الطريق القويم ،

(2) آسَفَهُ : أَسِفَ يأْسَفُ أَسَفاً فهو أَسِفٌ إذا غَضِبَ. (لسان العرب ، مادة أسف : 9 / 5).

(3) عفا له : عفا الشيء : إذا كَثُرَ وزاد. (لسان العرب ، مادة عفا : 15 / 72)

(4) تاريخ الرُّسل والملوك ، محمّد بن جرير الطبري (310 هـ) ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط 1 ، 1407هـ : 5 / 176.

(5) نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733 هـ) ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر : 7 / 193.

فأصبَحَ مُسْلِما وكان مِنْ قبل مِنَ الضَّالِّين ، فقد (أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم ، وبعث الرَّسول . صلى الله عليه وسلَّم . هداية للبشريَّة ، لإنقاذها من ضَلال الشِّرك والكفر والتَّحلُّل والفساد ، ولهذا جعل الدَّعوة إلى الدِّين الإسلامي فرضاً وواجبا بالحكمة والموعظة والإقناع)[1] ، فكان إسلامُ بعض الأشخاص باعِثاً لسعادة أصدقائهم من المُسلمين

وهذا أبو العيناء[2] يهنئ صديقه أبا نوحٍ بإسلامه فيقول :

(لقَدْ عَظُمَتْ نِعْمةُ الله عليكَ ، في مُنابذة[3] أهل الذِّلّةِ والصَّغار ، والكفرِ والإصرار ، الذين أحلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البَوَارِ[4] ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ القَرارُ ، والذين جَعَلوا لله أنداداً ، وَدَعوا للرَّحْمنِ وَلَداً ، (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ، إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً)[5] ، وَلْيَهْنِئْك نعمةُ الله عليك في أخوّة المهاجرين والأنصار والتَّابعين لهم بإحسان ، فقد أصبحت لهم أخا ، وأصبح الدعاء لهم عليك من الله فرضا ، قال الله عزّ وجل : (والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِر لَنَا وَلإِخْوَانِنا الَّذينَ سَبَقُوْنَا بِالإيمَانِ ، وَلا تَجْعَلْ في قُلُوْبِنَا غِلّاً لِلَّذينَ آمَنُوا ، رَبَّنا إنَّكَ رءُوْفٌ رَحِيمٌ)[6]. ولله أبوك! لقد قَدَحْتَ فأوْرَيْتَ ، واستضأتَ واستضأتَ فاهتديتَ ، ومخضْتَ الأمرَ ثم اقتنيت ، لا كمَن فكّرَ وقدَّرَ فقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر ، فالحَمدُ لله الذي أفازَ قِدْحكَ ، وأعلى كَعْبَك ، وأنقذَ من النار شِلْوَك[7] ، وخَلَّصَك من لَبْس الحَيْرة ، وجمْرة الشِّرْك ، إن الشِّرْك لَظُلْمٌ عظيمٌ. (ومَنْ يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ

---

(1) النَّثر الجهادي في العصر العَبَّاسِي حتى نهاية القرن الخامس الهجري (رسالة دكتوراه) : 55.

(2) أبو العيناء : هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان أبو عبد الله الضرير مولى أبى جعفر المنصور ويُكنَّى بأبي العيناء ، أصله من اليمامة ، وترعرع بالبصرة وبها كتب الحديث وطلب الأدب وسمع من أبي عبيدة معمر بن المثنى وأبي سعيد الأصمعي وأبي زيد الأنصاري ومحمد بن عبيد الله العتبي وغيرهم ، وله مع المتوكل مجالس ، وكان من أحفظ الناس وأفصحهم لسانا وأسرعهم جوابا وأحضرهم نادرة وقيل إنَّ بصرهُ كُفَّ وقد بلغ أربعين سنة ، وانتقل من البصرة إلى بغداد فسكنها، وتوفِّي سنة 282هـ. (ينظر : و الفهرست : 181 تاريخ بغداد : 3 / 170).

(3) منابَذة: النَّبْذُ طرحك الشيء من يدك أَمامك أَو وراءك ، نَبَذْتُ الشيء أَنْبِذُه نَبْذاً إذا أَلقيته من يدك، ونَبَّذته شدد للكثرة ونبذت الشيء أَيضاً إذا رميته وأَبعدته. (لسان العرب ، مادة نَبَذ 3 / 511).

(4) دار البَوَار: دار الهلاك. (لسان العرب ، مادة بَوَرَ : 4/ 86).

(5) سورة مريم : الآية 92 . 93.

(1) سورة الحشر : الآية 10.

(2) شِلْوَك : الشِّلْوُ والشَّلا : الجِلدُ والجسَد من كل شيء. (لسان العرب ، مادة شلا : 14 / 442).

أَو تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ[1][2] ، فأصبحتَ . أكرمك الله . وقد استبدلت بالبيع المساجد ، وبالآحاد الجُمَعَ ، وبِقِبْلَة الشامِ البيتَ الحرامَ. وبتحريف الإنجيل صحَّةَ التنزيل ، وبارتياب المشركين يقين المُوَحِّدين ، وبحكمِ الأسْقُفِ رأسِ المُلْحدين، حُكمَ أمير المؤمنين ، وسيِّد المرسلين ، فَهَنَّأك الله بما أنعم به عليك ، وأحسن فيه إليك ، وأوزعَك[3] شكره ، وزادك بشكره من فضله)[4].

يضم النص معانيَ إسلامية سامية وقيماً عليا ، إذْ يُبَيِّن فضل الله عزَّ وجل على البشر ، وأنَّه لا يستوي الكافر والمؤمن عند الله تعالى ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنَّ المشركين بالله أحَلُّوا أنفسهم وأهليهِم دار البَوَار ، فمصيرهم جهنّم وبئس القرار. وقد ذكر الكاتب بعض عيوبِ عقيدتِهِم الفاسدة والتي ذُكِرتْ في القرآن الكريم ، ومنها ادِّعاؤهم بأنَّ للرحمن ولداً ، وما ينبغي له ذلك ، إذ قال الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[5]. يقول بعضُ المفسِّرين في تفسير هذه الآية : (لمَّا قالت اليهود: نحن نعبد عُزيرَ ابن الله. الله. وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله. وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر. وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان. أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }يعني: هو الواحد الأحد ، الذي لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلَق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ، عز وجل؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله)[6].

يقول سبحانه وتعالى مخاطباً أهل الكتاب: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا

---

(3) سحيق : سَحُق الشيء بضم الحاء فهو سَحِيق أي بعيد. (لسان العرب ، مادة سَحَقَ : 10 / 152).

(4) سورة الحج : الآية 31.

(5) أوْزَعك: أَوْزَعَه الشيءَ أَلْهَمه إياه ، يقول الله تعالى على لسان نبيِّه سليمان عليه السلام: (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ)) (سورة النمل الآية 19) ومعنى أَوْزِعْني أَلْهِمْني وأَولِعْني به وتأْويلُه في اللغة كُفَّني عن الأَشياء إلا عن شكر نعمتك وكُفَّني عما يُباعِدُني عنك، (لسان العرب ، مادة وَزَعَ : 8 / 390).

(6) جمهرة رسائل العرب : 4 / 138 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 305.

(7) سورة الإخلاص.

(1) تفسير القرآن العظيم : 8 / 527.

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)[1]. وتفسير هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى ينهى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا حدَّ التصديق بعيسى ، حتى رفعوه إلى منزلة غير التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ، ممن زعم أنَّه على دينه ، فادَّعوْا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه ، سواءٌ أكان حقًا أم باطلا أم كان ضلالاً أم رشادًا ، أم صحيحًا أم كذبًا[2].

لقد عطّرَ الكاتب رسالته بكثرة اقتباسه من آيات القرآن الحكيم ، ولم يقتصر اقتباسه من النص القرآني بالألفاظ فقط ، وإنَّما تعدَّاه إلى الاقتباس في المعنى وحسب ما يقتضيه سياق النص ، وسنتحدَّث عن ذلك لاحقا ضمن الدراسة الفنية. وكذلك اقتبس من قوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا)[3]. يقول ابن كثير: (يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم ، إعظامًا للرب وإجلالا ، لأنَّهُنَّ مخلوقاتٌ ومؤسساتٌ على توحيدهِ ، وأنَّه لا إله إلا هو ، وأنَّه لا شريك له ، ولا نظير له ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له ، بل هو الأحد الصمد: وفي كُلّ شَيءٍ له آيةٌ... تَدُل على أنه واحِدُ...)[4].

وكلُّ ذلك للتأكيد على قيمة الإيمان بالله وأهمية التوحيد وعظمته ، وعلوِّ المنزلة في الدنيا والآخرة للَّذي تنطبق عليه صفات الموحِّد المؤمن بالله تعالى ، ولأنَّ أبا نوحٍ (صديق أبي العيناء) قد خرج من الظلمات إلى النُّور ، فإنَّه يستحقُّ التهنئة بنعمة الله عليه في أخوَّةِ المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ؛ فقد استبدل الإيمان بالكفر ، والهدى بالضَّلال.

(2) سورة النساء: الآية 171.

(3) تفسير القرآن العظيم : 2 / 477.

(4) سورة مريم: من الآية 90 . 93.

(1) تفسير القرآن العظيم : 5 / 266.

ونظيرُ ذلكَ ما كتبَهُ محمَّد بن مكرَّم[1] إلى صديقٍ له قد أسلم :

(أمّا بعدُ: فالحمدُ لله الذي وَفَّقَكَ لشكرِهِ ، وعَرَّفك هِدايتَه ، وطهَّرَ من الارتِيابِ قلبَكَ ، وما زالت مَخَايِلُك ممثِّلةً لنا حقيقة ما وهب الله فيك ، حتى كأنَّك لم تَزل بالإسلام مَوسُوما ، وإن كنت على غيره مُقيما ، وكنا مُؤَمِّلين لِمَا صِرْتَ إليه ، مُشْفِقينَ مِمَّا كُنتَ عليه ، حتَّى إذا كَاد إشْفاقُنا يَسْتَغْلِي رَجَاءَنا ، أتَتِ السَّعادةُ بِما لم تَزَلِ الأنفسُ تعدُّ منْكَ ، فأسأل الله الذي أضاء لك سبيلَ رُشْدِكَ ، أنْ يوفِّقك لصالح العمل ، وأنْ يُؤْتِيك في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً ، وَيَقيكَ عَذابَ النَّار)[2]. نجد في هذا النَّص اقتباساً في المعنى من المصحف الكريم ، فقد عبَّرَ الكاتب عن سعادتهِ بإسلامِ هذا الرجل ، وهنَّأهُ بطريقةٍ خاصَّة ، وذلك من خلالِ الدُّعاءِ له بالخير ، فاقتبس دعاءَ الصالحين في سورة البقرة: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[3]. يقول ابن كثير : (جمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا ، وصرَفت كلّ شر فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي ، من عافية ، ودار رحبة ، وزوجة حسنة، ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هنيء ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين ، ولا منافاة بينها ، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات ، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا ، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام)[4].

ثالثاً : التَّهنئة بسلامة القدوم من الحج :

---

(2) محمَّد بن مكرَّم : كاتب بليغ مترسِّل ، عاش في زمن الخليفة الراضي ، وكان بينه وبين أبي العيناء مداعبات ، توفِّيَ سنة 231 هـ. (ينظر: تاريخ بغداد : 3 / 300. و الفهرست : 179).

(3) زهر الآداب وثمر الألباب ، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453 هـ) ، مشروح بقلم المرحوم الدكتور زكي مبارك ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، ط 4 ، 1972م : 2 / 400.

(4) سورة البقرة ، الآية : 201 . 202.

(1) تفسير القرآن العظيم : 1 / 558.

كتب الأدباء في العصر العَبَّاسِي الأوَّل عدَّة رسائل في أغراض إخوانية متنوعة ، ومناسبات مختلفة ، ومنها مناسبة أداء مناسك الحج ،(والحجُّ قَصْدُ التَّوَجُّه إلى البيت بالأَعمال المشروعة فرضاً وسنَّة تقول حَجَجْتُ البيتَ أَحُجُّه حَجًّا إذا قصدته)[1] وكان بعض الكتَّاب يهنِّئون الخلفاء أو يهنِّئون أصدقاءهم الذين يعودون بعد أدائهم لهذا الرُّكن الإيماني الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى (في العُمر مرة واحدة على من توفرت فيه شروطه وهو من أفضل القربات إلى الله عز و جل)[2] ، ولذلك يهنِّئ المسلمون بعضَهم بعضاً في هذه المناسبة ، والرسائل هي إحدى طرائق التعبير عن بالغ السعادة التي يشعرون بها.

ومن خلال قراءة عدد من مصادر الأدب والتاريخ وجدت أنَّها لم تَحْفل إلاَّ بِرِسالتين ، على سعة الفترة المعنية التي حدَّدَتها هذه الدراسة. إذْ جاءت الرِّسالة الأولى إخْبارية من كاتبها موسى بن عيسى[3] إلى الخليفة الأمين يخْبِرُهُ بسلامة القدوم مِنَ الحج فيقول :

(أمَّا بعدُ ، فإنَّ الله بِحَمْده ومَنِّهِ هو وليُّ أمير المؤمنين ووليُّ النعمة عليه فيما حمَّلَهُ اللهُ واستحفَظَه ، وجَعَلَهُ القائم به والمحافظَ عليه ، من ولاية دينه ، ورِعاية أهلهِ ، والمرجوِّ لإتمام ذلك بمَنِّه ورحمتهِ.

وإنِّي كتبتُ إلى أمير المؤمنين يوم النَّفر الأوَّل ، وقد قضى الله مَنَاسِكَنا ، وتمَّمَ حجَّنا ، وأرَانا في مواقِفِنا وإفاضَتِنا ومَن حَضَرَ الموسِمَ معنا من رعيَّة أمير المؤمِنين ، أفضَلَ ما لم يَزَل يُبْلي[4] اللهُ أميرَ المؤمِنين ويعوِّده ، ويُبْلي الرعيَّةَ في خلافتهِ ، من السَّلامة والعافية ، والتوفيق والكفاية ، والله محمود. ولم أرَ مَوسِماً كانَ أَعَمَّ عافيةً وسلامةً ، وأحسَنَ هَدْياً ودَعَةً

---

(2) لسان العرب ، مادة حَجَجَ : 2 / 226.

(3) الجامع الصَّحيح المُخْتَصَر ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256 هـ) ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، ط 3 ، 1407هـ – 1987م : 2 / 549.

(4) موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العَبَّاسِي الهاشمي: أمير عباسي. كان جوادا عاقلا. وقد تزوَّج من عُليَّة أخت الرَّشيد ، ووُلي الحرمين للمنصور والمهدي مدة طويلة. ثم ولي اليمن للمهدي. وولي مصر للرشيد سنة 171هـ. وولاه الرشيد الكوفة ، فدمشق. ثم أعيد ثانية إلى إمرة مصر سنة 175هـ. وصُرِف سنة 180هـ. فأقام ببغداد إلى أن توفي سنة 183هـ. (ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : 14 / 275).

(1) يقال أَبْلاه الله يُبْلِيه إبْلاءً حسناً إذا صنع به صُنْعاً جميلاً ، وبَلاه اللهُ بَلاء وابْتَلاه أَي اختَبره. (لسان العرب ، مادة بَلا : 14 / 83).

، وأكثر داعِياً لأميرِ المؤمنين ووليِّ عهدهِ بطول البقاء ، من موسم النَّاس في عامهم هذا ، بنعمةِ الله وفضلِهِ. أحببتُ الكتاب إلى أمير المؤمنين ، لمعرفتي بعنايته وتطلُّعِهِ إلى عملِهِ ، لِيُسَرَّ به ، ويحمدَ الله عليه ويشكره ، فإنّهُ شاكِرٌ يُحِبُّ الشَّاكِرين)[1].

نلاحظ في هذا النَّص تعبيراً جميلاً عن التزام المسلمين بأداء فريضة الحج ، فالكاتبُ بعدَ حمْدِهِ لله عزَّ وجل ، يُهنئ الخليفة الأمين بقضاء الحُجَّاج لمناسِكِهم وإتْمامهم موسم الحج بالسلامة والعافية ، وما هذه الرِّسالة إلاَّ أحدى البراهين التي تؤكِّد على عناية الخلفاء واهتمامهم بموكب الحج الذي (كان من أعْظم المواكب في العصر العبَّاسي الأوَّل... ، إذْ كان الخلفاء يُنْفِقونَ الأموال اللازمة على موكب الحج السائر من العراق إلى الحجاز...)[2]. ويحاول الكاتب في رسالته أنْ يصِفَ للخليفة مشاعر الفرح الغامر الذي اعترى الحجَّاج وهم يؤدُّون المناسك فيُتِمُّون حجَّهم مطمئنِّينَ وهم يدعون له ، ويحمدون اللهَ على فَضْلِهِ.

أمَّا الرِّسالة الثانية في هذه المناسبة فكانت تهنئة محمَّد بن مكرَّم لصديقٍ له قد ذهب إلى الحج فكتب إليه :

(بلَّغَكَ الله الرِّضا في أمَلِكَ ، من نُجْحِ كلِّ حاجة ، وإبلاغِ كل أُمنِيَة ، وتقبُّل كلِّ دعوة خَصَصْتَ بها نفْسَكَ أو عَمَمْت بها أحَداً من أهلك ، في مجامِعِ وُفُوده ، ومُعْتَزَلِ قَراره. فكنت شافِعَ من شاهَدَك ، ووَافِدَ من غَابَ عنك ، يَسْتفتِح بدعائك ، ويُرَجَّى بركة مَحْضَرك ، والقُرْبةَ إلى الله عزَّ وجل بفضل جاهِك)[3]. بدأ الكاتب رسالته بالدعاء للحاج أنْ يتقبَّل الله عزَّ وجل منه صالح الأعمال ويستجيب دعواته سواءٌ أكانت خاصَّةً لنفسِهِ أم عمَّ بها أهله ، فهو يتبرَّكُ بهذا الحاج لبيت الله ، ويحتسبه من الصالحين الذين لهم مكانة خاصَّة عند الله سبحانه وتعالى. وممّا يلاحظ على النَّص بأنَّه مقتصد في عباراته ويدور في فكرةٍ محدَّدَة لا يحيد عنها، فكلُّ ما يشغل

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 350. نقلا عن كتاب اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 371.

(3) الخليفة المجاهد هارون الرشيد ، فاروق عمر فوزي ، مطبعة دار الشؤون الثَّقافية العامة ، ط 1 ، بغداد، 1989م : 96.

(1) جمهرة رسائل العرب : 4 / 246 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 299.

الكاتب هنا هو الإقرار بمكانة الحاج عند الله عزَّ وجل إذا تقبَّل دعواته ، فقد وَرَدَ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قالْ : قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اغفر للحاج و لمن استغفر له الحاج)[1].

رابعاً : التَّهْنِئَةُ بالتَّزويج :

يُعَدُّ التَزْويج مِنَ المناسَبات السَّعيدة الَّتي تَسْتَدْعي التَّهْنِئة ، وذلِك لدورهِ الأساس في اسْتمرار النَّسلِ البَشَري ، وأهميته في تكوين مجتمعٍ ناضِجٍ متماسِك ، فمن البَديهي أنْ يُهنِّئَ الناس بَعضَهُم بعضاً في مِثلِ هذه المناسبات المُقدَّسة ، ومن خلال الاطِّلاع على عدَدٍ من مصادِرِ الأدب والتَّاريخ فقد عثرتُ على نصٍّ يتيم ، وهو نص لغَسَّان بن عبد الحميد[2] إذْ كتبه إلى أحد الأمراء العبَّاسِيِّين يُهَنِّئُهُ بزواجه قائِلاً :

(قَدْ بَلَغَنِي جَمْعُ الأَمِيرَ أَهْلَهُ على الحَالِ الَّتي جَمَعَهُم عَلَيهَا مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيهِ ، فالحَمْدُ للهِ على كلِّ ما يَرَى الأميرُ فيما لَهُ فيهِ نِعْمَةٌ ، فأَسْألُ اللهَ أنْ يَجْعَلَ الطَّائِرَ في ذَلكَ ميْمُونَاً ، والشَّملَ مُجتَمِعاً ، والبَرَكَةَ عَظِيْمَةً ، والأُمُورَ سَلِيْمَةً ، وكذلِكَ فَقَد عَظَّمَ اللهُ القَسْمَ منهُ لِزَوْجِهِ، جَعَلَ الأميرَ سَكَنَاً لَهَا ، وَأَجْرَى الْمَوَدَّةَ والرَّحْمَةَ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّهُ يقُولُ عزَّ وجل: (خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)[3]...)[4].

نلحظ أنَّ المُرْسِل في هذا النَّص راعى مقام المرْسَل إليهِ ، فالخِطابُ مليء بعبارات الإحترام والتقدير ، ومِنها مُخاطَبَتَهُ إيَّاهُ بـ(الأمير) وتكرارها أكْثر من مرَّة ، وكذلك حافظ الكاتب على وحدة موضوعِه فما من مقدِّمات مسْهبة ، ولا استِطْرادٍ مُخِلٍّ بالأسلوب ، بلْ تمنَّى من اللهِ أنْ يَجْمعَ الأميرَ بأهْلِهِ على خير حال ، وأنْ يجْعلَ البَرَكة والسَّلامة ملازمينِ لهُ ، داعِياً له بما يُسْعِده ، فقد

---

(2) المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405 هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط 1 ، 1411هـ – 1990م : 1 / 609.

(3) غسان بن عبد الحميد : أحد كتَّاب العصر العَبَّاسِي الأوَّل ، كان بليغا حلو الكلام لطيف المعاني. وكان كاتباً لجعفر بن سليمان بن علي. (ينظر : الفهرست : 183).

(1) سورة الروم : الآية 21.

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 120 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 302.

زَيَّنَ النَّص بآيةٍ من القرآن الكريم التي تُبَيِّن مكانة الزَّواج وقدسيَّتِهِ عندَ اللهِ سبحانهُ وتَعالى ، وفيها تأكيدٌ على أهمية الزَّواج ودوْرِهِ في توطيد العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

خامساً : التَّهنئة بسلامة المواليد :

مِنْ ثمرة الزواج المقدَّس ، المواليد ، فهي من المناسبات السعيدة التي طرقها عدَدٌ من الكتَّاب في العصر العَبَّاسِي ، وتمتازُ هذه المكاتبات بالبلاغة وجمال الأداء ، كما تَتَّسِم عادةً بالإيجاز. فهذا عبد الله بن المعتز[1] يهنِّئ أحد أصحابه بمولود قائلاً :

(اتَّصَلَ بي خبر مولودك ، فسرَّني ما سرَّك ، وأنا أسألُ الله أنْ يُتْبِعَ النِّعمةَ بهِ عليك ببقائهِ لكَ ، وأنْ يُعَمِّرْكَ حتَّى ترى زيادةً إليه منهُ ، كما رأيتها به)[2].

نجد النَّص يتَّسِم بالإيجاز الذي يُعَدُّ ميزَةً بلاغية ، فقد أفصح الكاتب عن فرحته بالخبر السعيد ، وعبّرَ عنها بهذه الكلمات القليلة والعبارات المكثَّفة التي أفضت بالكثير ، وجاء محور الرِّسالة حول أهميَّة المولود وما يتبعه من سعادة ، ولكنَّ الكاتب أكّد على الجانب الأهمَّ في الموضوع وهو أن يحفظ الله سبحانه وتعالى هذا المولود ، ويبقيه على خير حال ، وأن يطيل الله في عمر والده حتّى يراه متنعِّما هانئاً بارّا به ، فهذا غاية ما يتمنَّاه الوالد لولده.

وعلى الشَّاكلة نفسها يلقانا أحمد بن يوسف في رسالة كتبها إلى صديقٍه في الغرض نفسه قائلاً :

(بارك الله في مولودك الذي أتاك ، وهنَّأك نعمته بعطيَّته ، وملاَّك[1] كرامته بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارَّاً تقيَّاً ، ميموناً مُبَارَكاً زكِيَّاً ، ممدوداً له في البقاءِ ، مُبَلَّغاً غاية

---

(3) عبد الله بن المعتز بالله : هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل على الله بن المعتصم بن هارون الرشيد ، الأمير أبو العبَّاس ، كان أديباً بليغاً شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر ، اتفق معه جماعة من رؤساء الأجناد ووجوه الكتّاب فخلعوا المقتدر سنة 296هـ ، وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقبوه بالمرتضي بالله ، ثم تحزَّب أصحاب المقتدر وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتَّتُوهم ، وقُبِضَ على ابن المعتز وخنقه مؤنس الخادم سنة 296 هـ. (ينظر : و وفيات الأعيان : 3 / 76 ، تاريخ الإسلام : 22 / 186).

(4) كتاب الأوراق . قسم أشعار أولاد الخلفاء ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت 335هـ) ، عني بنشره : ج. هيورث ، دار المسيرة . بيروت ، ط 2 ، 1399 هـ . 1979م : 293.

الأملِ ، مشدوداً بهِ عضدُكَ ، مُكَثَّراً بـه وَلَدُكَ ، مُداماً بـه سرورك ، مدفوعاً بـه الآفاتُ عنك ، مشْفوعاً بأكثرِ العددِ ، من طَيِّبِ الولدِ)[2]. يدعو الكاتب من الله سبحانه وتعالى بأنْ يجعل اليُمْنَ والبركة في هذا المولود ، لأنَّه سنَدٌ لأبيه ، وزيادةٌ له في عدد الأولاد ، وفي ذلك كلِّه دلالة واضحة على أهمية المواليد عند الخاصة والعامة ، إذ كانوا حريصين على الاستكثار من الذرية لأنّهم مصدر سندٍ وقوّة ، وفي الوقت نفسه مؤكِّدين على استمرار النسل بكثرة الأبناء ، لكنَّ الكاتب كان فطِناً لأمرٍ لا يَقِلُّ شأناً عند المسلمين ألا وهو صلاح هؤلاء الأبناء وبِرِّهم بآبائهم ، لأنَّ العاقلَ يَضعُ عددُ الأبناءِ في كفَّةٍ ، ويوازنُ تلكَ الكفةِ بما يقابلها من بركةِ هذا العدد وتقواه لله عزَّ وجل.

ونلتقي مع رسالة مماثِلَةٍ لِعبدِ الله بن المقفَّع[3] إذْ كتبها إلى صديق له يهنِّئه بمولودة :

(بارَكَ اللهُ لكُم في الابنةِ المستفادةِ ، وجعلَهَا لكُم زَيْنا ، وأجرى لكُم بِها خَيْرا ، فَلا تَكْرَهْها ، فإنَّهُنَ الأمَّهاتُ والأخواتُ ، والعمَّاتُ والخالاتُ ، ومنهُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ ، ورُبَّ غُلامٍ ساءَ أهلَهُ بعدَ مسرَّتِهِم ، ورُبَّ جاريةٍ فرَّحَت أهلَها بعد مساءتِهِم)[4].

نجد من خلال هذا النَّص تعبيراً عن التفاؤل والبشارة بالمولودة ، والدُّعاء بأنْ يطرح اللهُ الخيرَ والبركة فيها وأنْ تثبُتَ محبَّتها في قلب والدها ، لأنَّ الأمَّ والأخت والعمَّة والخالة هنَّ في نشْأتِهِنَّ بناتٌ مثلُ هذهِ المولودة كُنَّ كذلك فأصْبَحْنَ أمَّهاتٍ وأخواتٍ... ، والكاتب أراد أنْ ينبِّهَ على مسْألةٍ أخرى ، وهي أنَّ العِبْرةَ ليسَت في كون المولود ذكراً أمْ أُنثى وإنَّما العِبْرة في مدى صَلاحِهم في حياتِهم ومقدارِ إسعادِهم لأهلِهم ، وقد وضَّح الكاتِبُ هدفَه من خلال كلماتٍ جميلة

---

(1) مـلاَّك : يقـال مَـلاَّك الله حَبيبَـك أي مَتَّعَـك بـه وأعاشَـك معـه طـويلاً. (لسـان العـرب ، مـادة مَـلاَ : 15 / 290).

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 438 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 303.

(3) عبد الله بن المقفع : وهو أديبٌ مشهورٌ ، فارسي الأصل ، نشأ بالبصرة ، كان في نهاية البلاغة والفصاحة ، كاتباً وشاعراً ، وهو أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربي. اتُّهم بالزَّندقة فقُتِلَ في البصرة. وقيل إنَّ سبب قتْلِهِ هو إغضابه للخليفة المنصور عندما تشدَّدَ وتحوَّط في كتابة الأمان لعبد الله ابن علي عمِّ الخليفة المنصور. فأمَرَ الخليفة أمير البصرة سفيان بن معاوية المهلَّبي أنْ يقْتُلَه فقتله سنة 142هـ. من آثاره: الأدب الصغير والأدب الكبير ، والدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة في طاعة السلطان، وغيرها. (ينظر: الفهرست : 172 ، و تاريخ الإسلام: 9 / 198).

(1) جمهرة رسائل العرب : 3 / 57 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 304.

وعباراتِ وعظٍ هادفةٍ يُريدُ بها أنْ يخفِّفَ من وطأةِ النظرة الاجتماعية السائدة في عصره؛ ألا وهي كره المولودة ، أو بعبارة أخرى ، عدم السرور بمولد البنات والاستبشار بولادة الأبناء كما كان الحال قبل نزول القرآن الحكيم الذي رفض هذه الأمور المعيبة بحق الإنسان السويِّ. وأشار الله عزَّ وجل في كتابه العزيز إلى ما كان من أفعال أهل الجاهلية ، قال الله عز وجل : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)[1] ، يقول ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين : والموءودة هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية للبنات، فيوم القيامة تُسأل الموءودة على أي ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديدا لقاتلها ، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟![2]. على أنَّ الإسلام الحنيف قد أبطل دعوى الجاهلية فوعد الله عزَّ وجل الذين يحسنون تربية البنات ويؤدُّون حقَّ رعايتهنَّ فإنَّ لهم أجراً عظيماً يقيهم من عذاب النَّار ، فقد رُوِيَ عن عائشة أم المؤمنين أنَّها قالت : (دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندي شيئا غير تمرة فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت فدخل النبي صلى الله عليه و سلم علينا فأخبرته فقال : "مَنْ ابتُلِيَ مِنْ هذه البَناتِ بِشَيءٍ كُنَّ له سِتْراً مِنَ النَّار")[3].

المبحث الثَّاني

الرَّثاء والتَّعزية:

وهي رسائل كانت تصدر من الكتَّاب للتعبير عن أحداث ومناسبات اجتماعية محزنة ، فهي مشاركة وجدانية ، والرَّثاء له عدَّة معانٍ منها ما حدَّده قدامة بن جعفر في قوله : (ليس بين المرثية والمدحة فصلٌ إلاَّ أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنَّه لهالك ، مثل : "كان" و "تولَّى" و"قضى نحبه" وما أشبه ذلك ، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه ، لأنَّ تأبين الميِّت إنَّما هو يمثِّل ما كان يمدح به في حياته)[4]. وهذا يعني أنَّه يدخل ضمن الرثاء ما يسمَّى

---

(2) سورة التكوير : الآية 8 . 9.

(3) تفسير القرآن العظيم : 8 / 333.

(4) الجامع الصَّحيح المُخْتَصَر : 2 / 512.

(1) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، 1402 هـ . 1982م : 71. و العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة السعادة بمصر ، ط 3 ، 1963م : 2 / 147.

بالتأبين : وهو تعداد محاسن الميِّت وذكر مزاياه ومكانته الاجتماعية ، فهو أشبه بالمدح، ولا يفرِّقه عنه سوى الإشارة إلى أنَّ الكلام يقال في ميِّت[1].

ومن معاني الرِّثاء (العزاء) والتعزية : هي التصبير وذكر ما يسلي صاحب الميِّت ويُخفِّف حزنه ويهوِّن مصيبته ، وهي مستحبّة لأنَّها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2] ، وهي أيضاً داخلةٌ في قوله تعالى : (... وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى...)[3] وقد اهتمَّ عدد من الخلفاء والوزراء والأدباء بكتابة رسائل التعزية ، فعبَّروا من خلالها عن عواطفهم وانفعالاتهم ، وهي خيرُ تعبيرٍ عن مدى تفاعل بعضهم مع بعض ، واحترامهم للآخر.

إذاً فالعزاء رثاءٌ قوامُهُ حِكَم وعِظات في الحياة والموت ، القصد منه تخفيف الأحزان وتهوين المصيبة. وفي العزاء لا يُعبِّر الأديب عن أساه كما في الندب ، ولا يعدِّد مناقب الميِّت كما في التأبين ، وإنَّما يواسي أهل الفقيد ويعظهم[4].

ومن رسائل التَّعزية ما كتبه عبد الله بن المعتز في رسالةٍ يعزِّي بها صديقا له فيقول :

(الخُلُودُ في الدُّنْيا لا يُؤْمَلْ ، والفَنَاءُ لا يُؤْمَن ، ولا سَخْطَ على حُكْمِ الله ولا وَحْشَةَ مع خِلافَتِهِ ، والأنْسِ بِطَاعَتِهِ ، فَأَدِّ مَا اسْتُرِدَّ صَابِراً ، وأصْبِحْ لِمَا اسْتُرْجِعَ مُسْلِماً؛ فإنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ النِّعْمَةَ تَفَضُّلٌ مِنْ وَاهِبِهَا شَكَرَها مُقْبِلَةً ، وصَبَرَ عَنْهَا مُوْلِيَةً ، جَعَلَكَ اللهُ مُحْتَمِلاً للنِّعْمَة مُؤَدِّياً للشُّكْرِ ، صَابِراً عِنْدَ المِحْنَةِ ، مَحْفُوظاً مَوفُورَ أَجْرِهَا ، والفَوزِ بِالصَّبْرِ عَلَيهَا)[5].

اتسمت هذه الرِّسالة بالإيجاز والتركيز على انتقاء الألفاظ الموحية ، والمعاني المؤثرة ، فنلاحظ أنَّ الرضا بحكم الله وقضائه هو أولى الأمور التي أكد عليها الكاتب ، إذ صرَّحَ باستحالة خلود الإنسان ، وبإمكانية فنائه في أية لحظة كانت ، ولذا فإنَّه يوصي صاحبه بأداء الأمانة والصبر على المصاب والنهي عن الاعتراض على حكم الله عزَّ وجل ، فيفوز بالبشرى التي وعد

(2) في الأدب وفنونه ، علي بو ملحم ، المطبعة العصرية للطباعة والنشر : 86.

(3) ينظر : المستطرف في كلِّ فنّ مستظرف ، شهاب الدِّين أحمد أبي الفتح الأبشيهيّ (ت852 هـ) ، شَرَحَه: إبراهيم أمين محمد ، المكتبة التوفيقية : 597.

(4) سورة المائدة : الآية 2.

(5) ينظر : في الأدب وفنونه : 88.

(1) كتاب الأوراق . قسم أشعار أولاد الخلفاء : 294.

الله بها الصابرين. قال الله عزَّ وجل : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)[1].

ويُروىٰ أنَّ الخليفة المهدي جزع جزعاً شديداً حين ماتت ابنته (البانوقة) ، فأكثر النَّاس من تعازيه واجتهدوا في البلاغة[2] فكتب إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي[3] يعزِّيه بقولهِ :

(أمَّا بَعد فإنَّ أحَقَّ مَنْ عَرَفَ حَقَّ الله عَليه فيمَا أخَذَ مِنهُ مَن عَظَّمَ حقَّ الله عَلَيهِ فِيمَا أبْقَى لَه واعْلَم أنَّ المَاضِي قَبْلَكَ هُوَ البَاقي لَكَ وأنَّ البَاقِي بَعْدَكَ هو المَأْجُورُ فِيكَ وأنَّ أجْر الصَّابِرِيْنَ فيمَا يُصَابُونَ بِه أعْظَمُ مِنَ النَّعْمَةِ[4] عَلَيْهِم فِيمَا يَعَافُونَ مِنْه)[5].

نستشف من هذه الأسطر أنَّها كلمات قليلة لكنَّها عبَّرت عن المضمون الذي تكلَّم الكاتب فيه على ثواب المنكوب إذا أحسن الصَّبر ، ورضيَ بقضاء الله وسلَّم لأمرهِ تعالى ، وتضمَّنَت هذه التعزية معاني الزهد في الدنيا والتأكيد على فنائِها ، لأنَّ الأعمار محدودة بسنين معدودة ، وما أصبح ماضياً كان حاضراً ومعاصراً في زمانه ، فاليوم تأخذ بعزاء أهلك وأصحابك ، وغداً يأخذ من يتبقَّى منهم بعدك بعزائك ، وهذه سُنَّة الحياة.

وهذه رسالة الحسن بن وهب[6] في جواب تعزية عن وفاة ابنه إلى الشَّاعر أبي تمَّام الطائي:

الطائي:

(أمْتَعَنِي الله بِمَا وَفَدَ عَلَيَّ مِنْ مُوَافَقَتِكَ، وبُلُوغِ الوَطْرِ كُلَّ الوَطْرِ مِنْ انْضِمَامٍ إلَيْكَ واجْتِمَاعٍ بِعَيْنِكَ زَادَكَ اللهُ فِي النَّعْمَةِ بِطُوْلِ حَيَاتِكَ ، وتَرَاخِيْ أَيَّامِكَ ، وغَفْلَةِ الدَّهْرِ عَنْكَ ، وعَن حَظِّي

---

(2) سورة البقرة : الآية 155 . 156.

(3) ينظر : تاريخ الرُّسل والملوك : 4 / 593.

(4) إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي: وكنيته أبو إسحاق ، هو الشيخ العالم المحدث ، كان قَدَرِيًّا ، ومتَّهماً بالكذِب فلا يكتب لهُ حديث ، أخذَ عنه الإمام الشافعي وهو عنده ليس بمتهم بالكذب. توفِّي سنة 184هـ. (ينظر: الطبقات الكبرى : 5 / 425 ، و تاريخ الإسلام : 12 / 64).

(5) النَّعمة : المسرَّة والفَرح والتَّرَفُّه ، والنِّعمة . بِكسرِ النون . تأتي أيضاً بمعنى التَّرفُّه. (لسان العرب : مادة نَعَمَ : 12 / 579).

(6) البيان والتَّبيين : 2 / 269.

(1) الحسن بن وهب : هو الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه سليمان بن وهب ، كانا من أعيان عصرهم ، وكان الحسن يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات وقد ولي ديوان الرَّسائل وكان شاعرا بليغاً مترسِّلاً فصيحاً وأحد الكتَّاب الظرفاء. (ينظر : الأغاني : 23 / 102 ، و الفهرست : 177).

مِنْكَ. كِتَابِي بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي وَطَارِفِي وتالدي ، وكِتَابُكَ فِي يَدِي ، وفُلانٌ عِنْدِي ، وَنَحْنُ نُصَعِّد ونُصَوِّب في الشِّعْرِ العَجِيبِ الذي أَنْفَذْتَه فِي دَرْجِه ، وبَيْنَنَا مِنْ ذِكْرِكَ أَطْيَبَ مِنْ رَوَائِحِ الرِّيَاضِ غِبَّ القِطَار ، والحَالُ سَارَّة ، والعَافِيَة شَامِلَة ، نَحْمَدُ اللهَ عَلى النِّعْمَةِ ، ونَسْأَلُهُ حُسْنَ النَّمَاء والزِّيَادَةِ؛ وذَكَرْتَ مُشَارَكَتَك إِيَّاي فِي المُصِيْبَة ، ومَا كَانَ أَحْوَجَنِي حِيْنَ طَرَقَتِ الأَيَّامُ بِهَا أَنْ تَكُونَ حَاضِراً فَتُرْبِط قَلْباً ، وتُمْسِك صَلْباً ، فإِنَّها كَانَت حَالاً وَافَت غَرِيْراً بِها ، شَدِيدَ الغَفْلَة عَنْهَا ، حَتَّى كنْتُ كأَنَّنِي لا أَحْسِبُ الأَيَّامَ عَلَى هذِهِ الخَلِيْقَة ولا الدَّهرُ على هذه العَادة. فَسُبْحَانَ اللهِ لِهذَا السَّهوِ الطَّوِيْلِ، والتَّفْرِيطِ الذي لا يُشْبِهُ السَّفِيهَ فَضْلاً عَمَّن يَجِبُ أَنْ يُقَالَ لَهُ عَاقِلٌ حَكِيْم ، وإِنَّا للهِ وإِنَّا إِليهِ رَاجِعُون؛ لا زَالَتْ أَقْدَارُ السُّوءِ تَسْقُطُ دُونَكَ ، والرَّدَى يُخْطِئُكَ ، وكَلاءَةُ اللهِ تَحْضُرُك)[1].

نجد في هذا النَّص اختلاف بدايته عن بدايات النصوص التي سبقته ، على الرغم مِنْ أنَّها كتبت جميعاً في غرض التعزية ، ويعود السبب إلى هذا الاختلاف أنَّ هذه الرِّسالة جاءت جوابية. فقد كتبها المُعَزَّى إلى المُعزِّي ، فابتدأها بالدعاء من الله عزَّ وجل أن يُديمَ صحبتهما بالخير ، ودعا له بالعمر الطَّويل. ثمَّ شكر صديقهِ على المواساة التي قدَّمها له ، ولكنَّه ضمَّن في كلامه عباراتٍ توحي بالعَتَبِ عليه لأنَّه لم يكن حاضراً معه في تلك الأيام الصعبة التي وصفها الكاتب بأنَّها آذته وجعلته بمنزلةٍ ما بين السَّفيه والعاقل ، وكم كان محتاجاً فيها إلى صديقٍ يؤازره ويُحسِن عزاءه.

ويبدو أنَّ تلك الأيام قد انقضت فعاد الكاتب إلى سابق عهده يستذكر ربَّه ويستغفره ، وهاهو يسترجع الله عزَّ وجل وينيب إليه في فجيعته بابنه ، ليؤكِّدَ عَدَم سخطه على حكم الله تعالى ، ومن ثمَّ يدعو لصديقه بأن يحفظه الله ويُبعِد عنه أقدار السوء ، ويعمُّه بالخير ويبعده عن الأذى.

وممَّا يتَّصل بهذا المضمون رسالة عبد الله بن المقفَّع إلى صديق له يعزِّيه على وفاة ولدهِ:

(2) البصائر والذخائر ، أبو حيَّان التوحيدي (ت 414 هـ) ، مطبعة الإنشاء ، 1964م : 1 / 201.

(إنَّما يستوجبُ على اللهِ وعده مَنْ صبرَ للهِ بحقِّهِ. فلا تجمعنَّ إلى ما فُجعْتَ بهِ مِنْ وَلدِكَ، الفجيعة بالأجرِ عليهِ ، والعِوَضِ منهُ ، فإنَّها أعظمُ المصيبتين عليكَ ، وأنكأ المَرزِئَتَينِ[1] لكَ، أخلفَ اللهُ عليكَ بخيرٍ ، وذخَرَ لكَ جزيلَ الثوابِ)[2].

فالكاتب هنا يعظُ صاحب المصيبة ويُذكِّره بوجوب الصَّبر على الابتلاء ، وكأنّه يُعرِضُ حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلَّم : (ما مِنْ مُسلمٍ يُصَابُ بمصيبةٍ فَيفزَع إلى ما أَمَرَ اللهُ بهِ مِن قَولهِ إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ رَاجِعُون. اللَّهم عندكَ احْتَسَبْتُ مُصِيبَتِي فَأْجِرْنِي فيها وعَوِّضْنِي مِنْها. أجَرَهُ الله عليها وعوَّضَه خيراً مِنهَا)[3]. غير أنَّ الكاتب لم يُصرِّح بالحديث النبويِّ الشريف ، لكنَّه ضمَّن النَّص بعض معاني هذا الحديث.

وأسلوب الرِّسالة واضح يتَّسِمُ مع ما يجري فيها من طرافة التفكير ، فالكاتب يوصي صاحبه بالصَّبْرِ وعدم الجزع على موت ولده بما يتنافى مع عقيدة المؤمِن وهي ذكر الله واحتساب الثواب عنده ، أمَّا الجزع فإنَّه بمثابة فجيعة لا تقلُّ عن فجيعة فقد الولدْ ، بل قال عنها الكاتب بأنَّها أعظم ، إذ تَحْرِم صاحبها الثواب. وتَلطَّف فدعا لصاحبه أن يعوِّضه الله من ولده ويخلف عليه بخيرٍ منه[4].

وعلى الشَّاكلة نفسها كتب غسَّان بن عبد الحميد إلى صديق له يعزّيه بقوله :

(أمَّا بعدُ ، فإنَّ اللهَ لمْ يرضَ لنفْسِهِ أنْ يَمضي قَضَاءَهُ فيمَا وَافَقَ العِبادَ أو خَالفَهُمْ ، ولَم يرضَ مِنَ العِبَادِ إلاَّ بِأن يُسَلِّمُوا لأَمْرِهِ فِيمَا أحبُّوا أو كَرِهوا مِمَّا أَنْزَلَ بِهِم ، فَقَضَاءُ اللهِ غَيرُ مردودٍ ، وأمْرُهُ غَيرُ مَدْفوعٍ ، والسَّاخِط لذلكَ غَيرُ مُعتَبٍ ، وللرَّاضي به أفْضَلُ العِوَض)[5].

يضمُّ هذا النَّص تذكيراً وتنبيهاً على حقيقة أزليَّة يدركها أولو النُّهى ويعقلها المبصرون ، وهي تنزيه الله عزَّ وجل لنفسه عن الظلم ، والمقصود بالظلم هنا أن يكون قضاءَه نافذاً على

---

(1) المرزئتين : مفردها المَرْزِئَةُ والرَّزِيئَةُ وهي المُصِيبةُ ، وقد رَزَأْتُهُ رَزِيئَةٌ أَي أَصابته مُصِيبةٌ وقد أَصَابَه رُزْءٌ عظيم. (لسان العرب ، مادة رَزَأَ : 1 / 85).

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 58 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 318.

(3) سنن ابن ماجه ، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني (ت 273هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر. بيروت :1 /509.

(1) ينظر : تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 525.

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 122 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 306.

العِباد فيما يرغبون ويكرهون ، أو بحسب ميولهم وأهوائِهم الشخصية ، فالحقيقة أنَّ الله عزَّ وجل يقضي بين عباده بالحق ، ويحكم بينهم بما يشاء لحكمةٍ يعلمها وحده سبحانه ، قد تتجلَّى للعباد أحياناً ، وتخفى عليهم في أحيانٍ أخرى. ولن يرضَى سبحانه منهم إلاَّ التسليم بقضائه بينهم والخضوع لأمره ، سواءٌ عليهم إذا جرت الأمور في صالحهم ، أم جاءت على خلاف ذلك ، وهذا كلّه يصبُّ في مصلحة العِباد ، إذ أنَّه لا مرَدَّ لقضاء الله سبحانه، ولا دافع لِما قدَّرَ وأمَر ، ولذلك فإنَّ الساخطَ لا يلومَنَّ إلاَّ نفسه ، أمَّا العبد الراضي بقضائه تعالى ، فإنَّهُ يحتسب أجرَ صبرهِ على الابتلاء عند الله الذي لا تضيع ودائعه. قال الله عزَّ وجل : (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِين)[1].

جاءت عبارات الرِّسالة مكثَّفة ممزوجة بالترغيب والترهيب ، ولم يذكر عبارات المواساة المعتادة المشحونة بمعاني التصبير والتفكُّر ، لأنَّهُ أدرَكَ مقدار الجزع الذي أصاب أهْلَ الميِّت، فقرَّرَ أنْ يعزِّيهم بأسلوب الواعظ الحكيم الذي يؤمن بقضاء الله عزَّ وجل.

والمُلاحظ على هذه الرِّسالة أنَّها لم تخاطب شخصاً بذاته ولا قوماً معينين ، ولذلك تصلح كتعزيةٍ عامة وخاصة لكلِّ عباد الله ، ممَّن أصيب بمصاب أليمٍ ففقد عزيزاً أو قريباً وكان لفقده حزينا.

ومن الرَّسائِل الموجزة البليغة التي كتبت في موضوع التَّعزية أيضاً ، رسالة سعيد بن عبد الملك إلى أحد أصدقائِهِ:

(المصائِبُ . أكرمك الله . هدايا لِقَومٍ ، وبَلايَا على آخَرِين ، فَجَعَلَكَ اللهُ مِمَّن عَقِلَ عندَما اسْتعْمَلَ الشُّكْرَ عِندَ الإمْتَاع ، والصَّبْرَ عِندَ الارتِجاعْ)[2].

حاولَ الكاتبُ أنْ يُعَزِّيَ صاحبه من خلال حضِّهِ ليكون من الذين يعقلون الأمور فيتقبَّلونَ قضاء الله بطِيب النفس ويسترجعون عند المصائب؛ لأنَّ المؤمن يتوقَّع المصيبة كهديَّة من ربِّه الكريم ، والهدايا لا تُرَد. وللعاقل ميِّزَتانِ يُعرف بهما ، إحداهما أن يشكر الله عزَّ وجل في الرخاء ، والأخرى هي الصبر على المصيبة.

---

(3) سورة آل عمران : الآية 171.

(1) جمهرة رسائل العرب : 4 / 302 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 317.

المبحث الثَّالث

الاعتذار والاسْتِعطاف :

يعدُّ الاعتذار من الموضوعات المهمَّة التي تكاتب فيها الإخوان والأقران ، وذلك لانتزاع الأحقاد من القلوب. أمَّا الاستعطاف فهو الآخر من الموضوعات المهمَّة التي تناولتها الرسائل الإخْوانِيَّة في العصر العَبَّاسِي ، وتتَّسم هذه الرسائل غالباً بدفق العاطفة وصدق الإحساس ، للتأثير في نفسيَّة المكتوب إليهِ[1] (وثمرتهما العفو والصفح ، وهما خير مندوب إليه ، وأحسن محضوض عليه)[2] ، قال الله عز وجل : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ

(1) ينظر : الرَّسائل الفنيَّة في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي : 294 . 296.

(2) التذكرة الحمدونية ، محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون (ت 562هـ) ، مكتبة الخانجي، مطبعة النَّهضة ، ط 1 ، 1345 هـ . 1927م. : 1 / 453.

غَفُورٌ رَحِيمٌ)[1]. ويُعدُّ الاعتذار مِن أكثر الموضوعات الإخْوانِيَّة صدقاً ، لأنَّه أبعد ما يكون فيه الكاتب عن التصنُّع والادِّعاء ، فتراه يقرُّ بذنبه وتقصيره تجاه صاحبه ، وتجدهُ يكتب ما تمليه عليه نفسه وصولا إلى غايته النبيلة التي يسعى إليها ألا وهي إرضاء ذلك الشَّخص الذي ربّما أخذه بذنبٍ لم يفعله أو لسوء فهمٍ أدَّى إلى الغضب والنأي بعيداً عنهُ ، فتغيَّرَ الودُّ الذي كان بينهما ، وكادت تضيع الصداقة التي جمعتْهما. فما عسى أن يفعله الأديبُ الذي يجد مِنْ نفسهِ كتلةً مِنَ الأحاسيس سوى أنْ يكتب رسالةً يعتذر بها ويستعطفُ قلب صاحبه لِتعود بينهما المودة التي تُعَدُّ (مِن أنفع الأشياء للإنسان وأعونها على الزمان ، لأنَّ بالمودَّة صلاح لجميع الأمور ، وبالعداوة فسادها. وبذلك أمر الله . سبحانه . بالتوصُّل والمودة ، ونهى عن التعادي والفُرقة)[2]. ورويَ عن النبيِّ محمد عليه الصلاة والسلام أنَّه قال : (لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخَاهُ فوقَ ثَلاث ، يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هذا ويَصُدُّ هذا وخَيرُهُما الَّذي يَبدَأُ بالسَّلام)[3].

لقد اتَّجه أغلب كتَّاب الرسائل في العصر العَبَّاسِي الأوَّل إلى المزج بين الاعتذار والاستعطاف ، وهذا ما وجدناه من خلال قراءة النّصوص الأدبية. إذ نستشف معاني الاعتذار والاستعطاف ممزوجة في أغلب النصوص ، وذلك تبعاً لموضوعها وحاجةِ كاتِبها ، إذْ تتغيَّرُ الأحوالُ وتتقلَّب تبعاً لمشيئة الله سبحانه وتعالى ، فقد يمرُّ بعض النَّاسِ بأزماتٍ أو نكباتٍ نتيجة لأخطائهم أو أخطاء غيرهم ، فيتجرَّعون الويلاتِ والمآسي ويتحوَّلون من حالٍ إلى حالٍ آخر لا يسرُّهم ، ويضطرون عندها إلى استعطافِ مَن بإمكانه مساعدتهم للخروج من مأزقهم ، فهذا يحيى بن خالد البرمكي[4] كتب من الحبس إلى الخليفة هارون الرشيد يعتذر إليه ويستعطفه بعد أنْ حبَسَهُ الخليفة كعقوبةٍ له ، فيُخاطبهُ قائِلاً:

---

(3) سورة النور : الآية 22.

(4) البرهان في وجوه البيان : 290.

(5) صحيح البخاري : 5 / 2256.

(1) يحيى بن خالد البرمكي : أبو الفضل البرمكي الوزير ، كان سيِّد بني برمك وأفضلهم جودا وحلما ورأيا، وكان من أكمل أهل زمانه أدبا وفصاحة وبلاغة ، وأخباره في الكرم وشرف الخلال مشهورة. وعندما تولَّى الخليفة هارون الرَّشيد الخلافة عَرَفَ ليحيى حقه وكان يعظمه وإذا ذكره قال: (أبي) وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه إلى أن نَكَبَ بالبرامكة فغضب على يحيى وخلَّدَه الحبس. وتوفِّيَ سنة 190هـ. (ينظر : تاريخ بغداد : 14 / 128 ، و معجم الأدباء : 3 / 1).

(يا أميرَ المؤْمنين ، وأَسَفاً عَلى ما فَاتَ مِنْ قُرْبِكَ لا على شَيءٍ مِنَ المَواهب ، لأنَّ الأهْلَ والمَالَ إنَّما كَانَا لكَ وبكَ ، وكانا في يَديَّ عاريَّة ، والعاريَّة مَردُوْدَة. وأمَّا مَا أَصَبتُ به مِن ولدي فبِذَنبه ، ولا أَخْشَى عليكَ الخطأَ في أمْرِهِ ، ولا أنْ تكونَ تَجاوَزْتَ بِهِ فَوْقَ حَدِّه. فَتَذكَّر يَا أميرَ المؤْمنينَ كِبَرَ سِنِّي وضَعْفَ قوَّتِي ، فارْحم شَيبَتِي وَهَبْ لِي رِضَاكَ بالعَفْوِ عن ذَنبٍ إنْ كانَ ، فمِن مثلِي الزَّلل ، ومِن مِثْلَكَ الإقالة ، وإنَّما اعتذرُ إليكَ بإقْرارِي بِمَا يَجِبُ به الإقْرَارُ حتَّى تَرْضَى ، فإذا رَضِيتَ رَجَوتُ إن شاءَ الله أن يَتَبيَّنّ لك مِنْ أمْرِي وبَرَاءَةَ سَاحَتِي مَا لا يَتَعاظَمُك بعدَه ذنبٌ أن تَغْفِرَه. مدَّ الله في عُمْرِكَ ، وجَعَل يومي قَبْلَ يَوْمكَ. ثم كتب إليه هذه الأبيات :

يـــا مَـــن يَـــودُّ لـــيَ الـــرَّدى ... يَكْفيـــكَ منـــيِّ مـــا بـــيَه

يَكْفيـــكَ مَـــا أبْصَـــرْتَ مِـــنْ ... ذُلّـــي وذُلِّ مَكانـــيَه

وبُـــكاءُ فاطمـــةَ الكئِيْـــ ... ـبـــةَ والمَـــدامعُ جَارِيَـــه

ومَقَالِهـــا بِتَوجُّـــعٍ ... يَـــا سَـــوْأَتِي وشَقَائِيـــه

مَـــنْ لِـــي وقَـــدْ غَضِـــبَ الزَّمَـــانُ علـــى جَميـــعِ رِجالِيَـــه

يَـــا لهْـــفَ نفسِـــي لَهْفَهَـــا ... مَـــا لِلزّمَـــانِ ومَالِيَـــه؟

يَـــا عَطْفَـــةَ المَلِـــكِ الرِّضَـــا ... عُـــودي عَلَيْنَـــا ثَانِيَـــه)[1].

لو جئنا إلى مناقشة هذا النصّ ، لوقَفْنا على مدى براعة المترسِّل الذي قدَّم لنا صورة للنَّص جامعا بين النثر والشعر ، إذ جاءت الرِّسالة منسجمة مع الهدف الذي يبغيه الكاتب ، ويمكننا من خلال النَّص أن نشعر بمدى الألم الذي يعاني منه المُرْسِل الذي عبَّر عن ذلك بعبارات جميلة المعاني رقيقة الألفاظ ، فهو لا يأسف على ما ضاع من قرب الخليفة له بسبب العطايا والأموال ، لأنَّه يعدُّها أموال الخليفة وهي أمانة وسيؤَدِّيها إليه عاجلاً أو آجلا. ولكنَّه يُذكِّرُ الخليفة بتلك السنين التي قضاها في خدمته حتّى وصل إلى سنٍّ لا يستطيع فيها تحمُّل مشقَّة

(1) العقد الفريد ، أحمد بن محمَّد بن عبد ربِّه الأندلسي (ت 327هـ) ، شرحه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزِّين وإبراهيم الأبياري ، دار الكِتَاب العربي ، بيروت . لبنان ، ط 3 : 5 / 3 ، و غرر الخصائص الواضحة ، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى المعروف بالوطواط (ت 718هـ) ، المطبعة الأدبية . القاهرة، 1356هـ : 1 / 226.

السجن ، فإن كان له ذنبٌ أفلا يستحقُّ عفو أمير المؤمنين؟ وخاصَّةً لو علم الأخير براءة المتَّهم الذي لم يقترف ذنباً يستحقُّ هذه العقوبة ، على أنَّ الكاتب في اعتذاره ، ونفي التهمة عن نفسه ، أخذ بعين الاعتبار منزلة المُرْسَل إليه وهو الخليفة هارون الرشيد لأنَّ (إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل ، خطأ ، لا سيما مع الملوك وذوي السلطان ، وحقه أن يلطف برهانه مدمجاً في التضرع والدخول تحت عفو الملك، وإعادة النظر في الكشف عن كذب الناقل ، ولا يعترف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه ، ويحيل الكذب على الناقل والحاسد ، فأما مع الإخوان فتلك طريقة أخرى)[1]. وقد ختم الكاتب رسالته بأبياتٍ معبِّرة أفضت بما يلاقيه وقومه من سوء معاملة واقتصاصٍ جماعيٍّ عن طريقِ إذلال الخليفة لهم غاية الإذلال. فيخاطبه بحرف النداء (يا من يودُّ لي الرّدى...) ، وكأنَّ الكاتب يتعمَّدُ بهذا الحرف جعل الخليفة مسؤولاً عمَّا يكابده في سجنهِ ، ويحاول تنبيهه على قضيتِهِ التي تحتاج إلى إعادة النظر ، و من ثَمَّ يطالبه بالكفِّ عن إذلاله وتعذيبه مذكِّرا إيَّاه بحزن أهله عليه راجياً في النهاية أن يعود عليهم عطف الخليفة ورضاه كما كان في السابق. وقد ذكر بعض النُّقاد القدماء في معنى الاستعطاف : (ألا يُكْثِرَ الكاتب مِن شكاية الحال ورقّتها ، واستيلاء الخصاصة عليه فيها ، فإنَّ ذلك يجمع إلى الإبرام والإضجار في شكاية الرئيس لسوء حاله وقلّة ظهور نعمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروهٌ جداً ، بل يجب أن يجعل الشّكاية ممزوجة بالشُّكر والإعتراف بشمول النعمة وتوفير العائدة.

وسبيل ما يكتب به في الإعتذار من شيء أن يتجنّب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة الموجدة ، ولا يمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير، فإن ذلك مما يكره الرؤساء ، والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم وخولهم بالتقصير والتفريط في أداء حقوقهم وتأدية فروضهم ، ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العفو والتجاوز موضع منّة مستأنفة تستدعي شكراً ، وعارفة مستجدّة تقتضي نشراً ، فأما إذا بالغ المتنصّل في براءة ساحته من كلّ ما قذف به فلا موضع للإحسان إليه في إعفائه عن ترك

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : 1 / 171.

السخط ، بل ذلك أمرٌ واجبٌ له ، وفي منع الرئيس حصّته منه ظلمٌ وإساءةٌ. وينبغي أن يكثر الألفاظ عنده ، فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعاد ما يعيده منها بغير اللّفظ الذي ابتدأه به)[1].

ويسترسلُ كتَّاب العصر على الشَّاكلة نفسها ، إذْ كتبت السيدة زبيدة[2] (والدة الخليفة الأمين) برسالة تستعطف الخليفة المأمون بقولها :

(كلُّ ذنبٍ يا أميرَ المؤمنين . وإن عَظُمَ . صغيرٌ في جَنْبِ عفْوِكَ ، وكلُّ زلَلٍ . وإنْ جلَّ . حقيرٌ عند صفْحِكَ ، وذلك الذي عوَّدَكَ اللهُ ، فأطالَ مُدّتك ، وتمَّمَ نِعْمتَك ، وأدَامَ بكَ الخَيْرَ ، ورَفَعَ بكَ الشَّر. هذه رُقْعةُ الوَالهِ[3] التي تَرْجُوكَ في الحَيَاةِ لِنَوائِبِ الدَّهرِ ، وفي المَمَاتِ لِجَميلِ الذِّكرِ ، فإنْ رَأيتَ أنْ تَرْحمَ ضَعْفِي واسْتِكانَتِيْ ، وقِلَّةَ حِيْلَتِيْ ، وأَن تَصِلَ رَحِمِي ، وتَحْتَسِبْ فيمَا جَعلَكَ الله طالباً ، وفِيهِ راغِبَاً ، فَافْعَلْ ، وتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيَّاً لَكَانَ شَفِيْعِيْ إِلَيْكَ)[4].

مِنْ خلال قراءة النَّص نَجِدُ السيدة زبيدة قد مَزجَت بين الإعتذار والإستعطاف ، فجاءت الفكرة العامة في النَّص حول تذكير الخليفة المأمون بصلة الرَّحم التي تجمعه بصاحبة الرِّسالة ليُحسِن إليها ويرحم ضعفها ، خصوصاً بعد مقتل ابنها الأمين ومصادرة أموالها على يد طاهر بن الحسين[5] ، إذْ ابتدأ النَّص بمقدِّمة جميلة أشير فيها إلى أنَّ سماحة صدر الخليفة تجعل الذَّنب الكبير صغيراً ، فهيَّأتْ بذلك جوّاً مناسباً للانتقال إلى الموضوع الأهم وهو الإستعطاف، فجاء النَّص مليئاً بعبارات الأسى والتَّوجُّع والحاجة إلى الرَّحمة والعطف ، كاشفاً عن ضعفٍ وقلَّةَ حيلة ، وخُتِمَ النَّص بتذكير الخليفة المأمون بوالده الرشيد الذي . لو كان حيَّاً . لم يرض بوقوع هذا الحيف على زوجه.

---

(1) كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري (ت 395هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي . محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العربية . بيروت ، 1406هـ . 1986م : 158.

(2) السيدة زبيدة : هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، ويقال إنَّ اسمها أَمَةُ العزيز ، ولقَّبَها جدها أبو جعفر المنصور "زبيدة" لبضاضتها ونضارتها. وهي أمُّ الخليفة الأمين محمد بن هارون الرشيد ؛ كان لها معروف كثير وفعل خير. تزوَّج بها هارون الرشيد في سنة 165 هـ ، وتوفِّيَت ببغداد سنة 216هـ. (ينظر : تاريخ الرُّسل والملوك : 5 / 23 ، و وفيات الأعيان : 2 / 314).

(3) الواله : الوَلَهُ الحزن الشَّديد. وقيل هو ذهاب العقل والتحيُّر من شدّة الوجد أَو الحزن أَو الخوف ، والوَلَهُ ذهاب العقل لِفقْدانِ الحبيب. (لسان العرب ، مادة وَلَه : 13 / 561).

(1) جمهرة رسائل العرب : 3 / 374.

(2) ينظر : تاريخ الرُّسل والملوك : 5 / 33.

لقد التزمت السيدة زبيدة في هذا النَّص بوحدة الموضوع ولم تعمد إلى المراوغة أو المماطلة ، ولذلك جاءت فكرتها واضحة ومعبِّرة عما يختلج في نفسها. ويمكن القول بأنَّ عاطفة الحزن والخوف كانتا تسيطران على مشاعرها ، لأنَّ الذي حدث كفيل بأن يحرِّك مشاعر الأسى والقلق على مصيرها المجهول.

ويلقانا الكاتب إبراهيم بن سيَّابة[1] برسالته إلى يحيى بن خالد البرمكي التي يسْتعطفه فيها بِقوله : **(لِلأَصْيَدِ[2] الجَواد ، الواري الزِّناد[3] ، المَاجِد الأجْدَاد ، الوَزِير الفَاضِل ، الأَشَمِّ[4] البَاذِل ، اللُّبَاب الحُلاحِل[5] ، مِن المُسْتَكين المُسْتَجير ، البَائِس الضَّرير فإنِّي أحْمَدُ الله ذا العِزَّة القديرِ ، إليك وإلى الصَّغيرِ والكَبير ، بالرَّحْمَةِ العَامَّة والبَرَكَةِ التَّامة. أما بعد ، فاغْنَم واسْلَم واعْلَم إنْ كُنتَ تَعْلَم أنَّهُ مَنْ يَرْحَم يُرْحَمْ؛ ومَن يَحْرِمْ يُحْرَمْ ، ومَن يُحسِن يَغْنَم ومَنْ يَصْنَع المَعْروفَ لا يَعْدِمْ ، وقد سبق إليَّ تغضُّبَك عليَّ ، واطراحِك لي وغَفْلتَك عنِّي بما لا أقومُ لَهُ ولا أقْعُد ولا أنْتَبِه ولا أرْقُد ، فَلَسْتُ بِحَيٍّ صحيحٍ ، ولا بِمَيِّتٍ مُسْتَرِيحٍ ، فَرَرْتُ بَعدَ اللهِ مِنكَ إليكَ ، وتَحمَّلتُ بكَ عليكَ ، ولذلك قلت:**

أسْــرَعَتْ بِــي حَثّــاً إلَيْــكَ خِطَــائِيْ فَأَنَــــاخَتْ بِمُذْنَــــبٍ ذي رَجَــــاءِ

رَاغِــــبٍ رَاهــــبٍ إلَيْــــكَ يُرَجِّــــي مِنــكَ عفــواً عَنْــهُ وفضــلَ عَطَــاءِ

وَلعُمْــريْ مَــا مَــنْ أَصَــرَّ ومَــن تَــا بَ مُقِــــرّاً بِذَنْبِــــه بِسَــــواءِ

---

(3) إبراهيم بن سيَّابة: مِنْ شعراء وقته ، كان خليعا ماجنا يميل بمودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق فغنَّيَا في شعره ورفعا منه وكانا يذكرانه للخلفاء والوزراء ويذكرانهم به إذا غنيا في شعره فينفعانه بذلك. (ينظر : الأغاني : 12 / 108).

(4) الأَصْيَد : هو الذي يرفع رأْسه كِبْراً لا يلتفت يميناً ولا شمالاً. (لسان العرب: مادة صَيَدَ : 3 / 260).

(5) الواري الزِّناد ، يقال : إنه لوارِي الزِّنادِ ووارِي الزَّنْد ووريُّ الزند إذا رامَ أمراً نجَحَ فيه وأَدرَكَ ما طَلَب. (لسان العرب: مادة وَرِيَ : 15 / 386).

(6) الأشم ، يعني : السيد ذو الأنفة ، الشريف النفس ، وهو من المجاز. (ينظر : تاج العروس من جواهر القاموس : 8 / 187).

(1) الحُلاحل: الركين في مجلسه ، والسيد في عشيرته. (تهذيب اللغة : 3 / 441).

فإنْ رأيت ـ أراكَ اللهُ ما تُحبُّ وأبقاكَ في خَيرٍ ـ أن لا تَزْهَدْ فيمَا تَرى مِن تَضَرُّعِي وتَخَشُّعِي وتَذَلُّلِي وتَخَضُّعِي ، فإنَّ ذلكَ ليسَ منِّي بِنَحِيزَةِ[1] ولا طبيعة ، ولا عَلَى وَجْه تَصَنُّع ولا تَخَدُّع ، ولكِنَّهُ تَذَلُّل وتَخَشُّع وتَضَرُّع مِنْ غَيرِ ضَارِع ولا مَهِين ولا خَاشِع لِمَن لا يَسْتَحقُّ ذلك إلاَّ لِمَن التَّضَرُّع لَهُ عِزٌّ ورِفْعَةٌ وشَرَفْ ، والسَّلام)[2].

خاطبَ الكاتبُ المُرْسَل إليه بألفاظٍ وعباراتٍ جميلة ورشيقة ، إذْ تمكنت تلك الألفاظ والعبارات ـ فيما يبدو ـ من استعطافه وتحقيق الغاية المقصودة ، إذ يقول الجاحظ: (وبلغني أنَّ عامَّة أهل بغداد يحفظونها في تلك الأيام)[3]. إعجابا منهمً ببلاغتها ، وهي (بلاغة تُرَدُّ إلى ما أجرى فيها ابن سيَّابة من هذا السجع الرشيق الذي يدلُّ بوضوح على أنَّ العبارات كانت طيِّعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن يستعصي عليه منها شيء ، حتَّى مع ما اختاره لها من ممرَّات السجع ودروبه الضيِّقة)[4].

وعلى الشاكلة نفسها يلقانا أحمد بن يوسف في رسالته التي يعتذر بها إلى صديق لهُ بعد حدوث جفوةٍ بينهما وفيها يقول:

(لِي ذُنُوبٌ إنْ عَدَدْتُها جَلَّت ، وإنْ ضَمَمْتُها إلى فَضْلِكَ حَسُنَتْ ، وقَد رَاْجَعْتُ إنَابَتِي ، وسَلَكْتُ طَرِيقَ اسْتقامتي ، وعلمت أنَّ توبتي في حُجَّتي ، وإقراري أبلغ في معذِرَتي ، فهذا مَقامُ التائب من جُرْمِهِ ، المُتَضمِّن حُسْنَ الفَيئة[5]على نفْسِهِ ، فقد كان عِقابُكَ بالحلم عنِّي أبلَغُ من أمرِكَ بالانتصافِ منِّي ، فإنْ رأيتَ أن تَهِبَ لي ما استحققته من العقوبةِ ، لِمَا تَرجُوهُ مِنَ المثُوبةِ ، فعلتَ إنْ شاءَ الله)[6].

---

(2) نَحيزَة : نَحيزَة الرَّجل ، أيْ طريقة الرَّجل أو طبيعته وجمعها نحائزْ. (لسان العرب ، مادة نَحَزَ : 5 / 414).

(3) البيان والتَّبيين : 3 / 178.

(4) م.ن : 3 / 178.

(5) تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 495.

(1) الفِيئةُ بوزن الفِيعةِ الحالةُ من الرُّجوعِ عن الشيءِ الذي يكون قد لابَسه الإنسانُ وباشَرَه. (لسان العرب ، مادة فَيَأَ : ﷺ /

رأيْنا الكاتِبَ قدْ مَزَجَ بين الاعتذار والاستعطاف ، فقد بدأ رسالتهُ بالاعتراف بذنوبه الكثيرة التي لا يستطيع إنكارها أو التبرُّؤ منها ، وهذه البداية تدلُّ على حُسنِ نيَّته من خلال إقرارهِ بالتقصير ومحاسبته لنفْسِهِ وتحمُّلها وِزْرَ ما آلتْ إليهِ الأمور بينه وبين صديقه الذي له من الفضل الواسع فَيُسامحهُ على أخطائِهِ.

ويعْلم الكاتب أنَّ الإقْرارَ بالذنب وعدم التنصُّل منه يؤدِّي إلى تسامح صاحبه ، لأنَّه لا يريد خسارته ، بل يتقبَّل منه العقوبة التي يجدها مناسبة لهُ حتَّى يرضى ويصفح عنه ، لكنَّه اختار العقوبة الأشدَّ كما يرى الكاتب ، فصديقه اختار عدم الاقتصاص منه ، وألزم نفسه بالحُلمِ عنه ، فكان وقع التصرُّف أليماً في نفسه ، ممَّا دعاه بأنْ يطالبَ بتعجيلِ العقوبة التي يستحقُّها حتّى يعود صفاء الأخوَّة والمودَّة التي كدَّرتْها الذنوب والهَفَوَات.

وقد تضمَّنت هذه الرِّسالة معاني سامية ، إذْ عبَّرت عن تواضع الأخ لأخيه ومودَّتِهِ إيَّاه ، وحُسن الاعتذار إليه ، وبذلك أنهى الجدال والعتب الطويل الذي لا خير فيه ، وعادَ إلى مودَّة صديقه ومحاولة التواصل معه من جديد.

ومن الأمور التي ترافق جفوة الأصدقاء هو سوء الظن ، إذ نجد الكاتب أبو الربيع محمد ابن الليث[1] يكتب إلى شخص ظنَّ به بعض الظنون الخاطئة فيقول :

(كيفَ يَسَعُكَ أنْ تَأْخُذَنِي بِظنٍّ ، لو كُنْتَ فيه على حقيقة عِلْمٍ لَما وَسِعَكَ أخْذي ولا عقابي عليه ، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سويداء القلب ، واسعةً لك في حُكْمِ الرَّبِّ ، لكان فيما حَجَبَتِ الغُيوبُ من العمل ، ما ينتقل في القلوب التي لا تثبُتُ على حالٍ ، إلاَّ رَيْثَما يتْبَعُها انتقالُ ما يدعوك إلى أن تُمْسِكَ عنِّي ، وتَقِفَ حتَّى تعرِفَ أيُمْضَى رأْيٌ أم ينصَرِفْ؟)[2].

يُبَرِّئ الكاتب نفسه من سوء ظن صاحبه ، ويؤكِّد له براءته عن طريق حضِّه على التثبُّت من حقيقة الأمر قبل الحُكْمِ عليه ، لأنَّ الله عزَّ وجل وحده العالِم بما تكنُّه السرائر وما تخفي

(1) أبو الرَّبيع محمد بن الليث : كان كاتباً بليغاً مترسِّلا وفقيهاً متكلِّماً بارِعاً ، عاش على أيام العباسيين ، وكانت البرامكة تُقدِّمه وتُحسِن إليه ، وكان كاتباً للوزير يحيى بن خالد البرمكي. توفِّي سنة 299 هـ. (ينظر : الفهرست : 175 ، و تاريخ الإسلام : 22 / 290).

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 185 ، نقلاً عن : اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 388.

الصدور. قال تعالى : (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)[1]. يقول المفسِّرون في تفسير هذه الآية : يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أي : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا. لأنَّه في ذلك اليوم تُخْتَبَرُ سرائر العباد ، فيظهر منها يومئذ ما كان في الدنيا مستخفيًا عن أعين العباد من الفرائض التي كان الله ألزمهم إياها ، وكلَّفهم العمل بها[2].

ويشير الكاتب أيضاً (إلى معنىً نفسيٍّ دقيقٍ ، وهو أنَّ الخواطر التي تلمُّ بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان يتنقَّلُ بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصحُّ أخذ الإنسان بخاطر إلاَّ إذا ثبت فيه وعاش طويلاً ، فقد يمرُّ به خاطر سريع ويمضي دون أوبة ولا رجعة)[3].

وقد حرص بعض الكتَّاب على تصوير الأُخُوَّةِ الصادقةِ وبيانِ حقوقها وضرورة الوفاءِ بين الإخوان ، وذلك بإسْتِعْطافِ أصْدقائهم وتذْكيرِهم بأهمية الأخوة ، فقد بعثَ جبل بن يزيد[4] برسالةٍ إلى صديقٍ له يقولُ فيها :

(اعْلَم أنِّي إليك مَشُوق ، وأنَّ صِلَةَ الإخوانِ كَرَم ، وخيرَ الصِّلاتِ ما لم يَكُنْ لهَا وَجْهٌ إلا الرَجاءُ والحِفْظُ وتَجْديدُ المودَّةِ وتصْحيحُ الإخاء ، فإنَّ الذي يُكاتبُ إخْوانَه على حالِ الرَّغبة ، يَكفي القائِلَ كِتابُه حيثُ شاءَ إنْ أحبَّ مال به إلى الصِّحة ، وإنْ شاءَ وَضَعهُ للرَغْبةِ ، والرَّغْبَةُ أمْلَكَهُما به ، والذي يُكاتب إخْوانَه على حال الضَّرورة ، فقد يسْتَقْطع الصِّلة عند الحَدَث مخافة الملامة من النَّاس على القطيعة الشَّنْعاء المشْهورة لإخْوانه ، فإنَّ الذي لا مودَّةَ له قد يصل ذلك في تلك القطيعة بأهل البلاء.

والكِتابُ على مِثْلِ حالِنا وحالِكَ اليوم شاهِدٌ على أنَّ ذلك ليس إلا صِحَّةَ الإخاء ، والشَّوقَ إلى المحادثة بالكِتاب ، حينَ لا يَلُومَك اللائِمون لِمَنْزِلةِ البلاء تِلكَ اللائِمَة على التَّقْصير ، ولا

---

(3) سورة الطارق : الآية 9.

(4) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرِّسالة ، ط 1 ، 1420 هـ – 2000م : 24 / 358. و تفسير القرآن العظيم : 8 / 376.

(5) تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 494.

(1) جبل بن يزيد : وهو أحد الكتَّاب البلغاء في العصر العَبَّاسِي الأوَّل ، كان كاتباً لعمارة بن حمزة في زمن المنصور. (ينظر: الفهرست : 181).

يُوضَعُ مِنكَ الرَّغبة في الإطْماع ، إيَّاكَ أنْ تعْتَلَّ بالأشْغالِ إنْ كنتَ في خاصَّة نَفْسِكَ ، فإنَّ أدَاءَ الحَقِّ وَصِلةَ الإخْوان أعْظمُ الخاصَّةِ بكَ خاصَّةً ، وإنَّما أمْرُنا في كلِّ هذا كأمْرِكَ في الذي تَسْتَغني به مِن خاصَّتِك تلك التي لَنَا ، فإنْ لَنَا ما لَكَ ، وهذِهِ التي لَنَا لَكَ ، أَلَيسَ ما سَرَّنَا سَرّك ، وما سَلَبْناهُ حظَّاً لك ، فهذِهِ كذلك وذلكَ كهذِي ، والله يُوَفِّقُنا وإيَّاكَ...)[1].

يخاطب الكاتب صديقه بعبارات الشَّوق والمودَّة ويُذَكِّرهُ بوجوب الوفاءِ ودوام الصُّحبة بينهما ، (وواضحٌ أنَّه يتَّسِعُ في تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودِّدين المُلْحِفين في الأخوَّةِ أصْنافاً ، فمنهم من يطلبها للرَّغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضَّرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمَّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعة الشَّنيعة. ويقول إنَّ إخاءه ليس من هذين الضَّربين المَمقوتين ، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أنْ لا يَعْتلَّ بِشُغلٍ عنه بخاصَّةِ نَفسه وانصرافه إلى بعض شؤونه فالإخاء الصَّادق أخصُّ ما ينبغي له أنْ يشغَلَ صاحبه ويصرفه عن كلِّ شيءٍ سواه)[2].

ويلقانا الشاعر المترسِّل كلثوم بن عمرو العتَّابي[3] في رسالةٍ يعتذر إلى صديقٍ له ويستعطفه:

(كَتَبتُ إليْكَ ونَفْسِي رَهِيْنَةٌ بِشُكْرِكَ ، ولِساني عَلِقٌ بالثَنَاءِ عَلَيْكَ ، والغالبُ على ضَميْرِي لائمةٌ لِنَفْسي ، واسْتِقْلالٌ لجُهدِي في مُكَافأَتَكَ ، وأنتَ – أصْلَحَكَ اللَّهُ– في عزِّ الغِنَى عنِّي ، وأنا تحْتَ ذُلِّ الفَاقَةِ إلى عَطْفِكَ ، وليْسَ مِنْ أخْلاقِكَ أنْ تُوليَ جانبَ النَّبْوَةِ[4] مِنكَ مَنْ هو عَانٍ في الضَّراعةِ إليْكَ)[5].

---

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 136 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 12 / 265.

(1) تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأول) : 492.

(2) كلثوم بن عمرو العتَّابي : أبو عمرو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتَّابي من أهل قنسرين ، كان شاعراً مقدَّماً من شعراء الدولة العبَّاسية ، وكاتباً حسن الترسل ، وكان يصحب البرامكة ويختص بهم ، فوصلوه بالخليفة الرَّشيد ، ثم صحب طاهر بن الحسين وعلي بن هشام وكان من أحسن الناس اعتدادا في رسائله، وله من الكتب كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الأجواد. وكانت وفاة العتَّابي سنة 220هـ. (ينظر : الأغاني : 13 / 122 ، و الفهرست : 175 و تاريخ بغداد : 12 / 488).

(3) النَّبْوَة : الجفوة ، نَبَا عني صاحِبي أي جفانِي ، ونَبَا الرَّجل بصره عن الشيء أي تجافى ولم ينظر إليه وكأنَّه حقره. (ينظر : تهذيب اللغة : 5 / 215 ، ولسان العرب ، مادة نَبَا : 51 / 301).

(4) زهر الآداب وثمر الألباب : 4 / 1057.

يعتذر المُرْسِلُ عن الإبطاء في تلبيةِ دعوة صديقه ، ويبدو أنَّ صاحبَ الدَّعوة قد ساءه إبطاء المدعو في المجيء ، ولذلك صاغ الأخير رسالته بأسلوب يستعطفه به ويعتذر منه في الوقت نفسه ، فتراه دائم الشكر له والثناء عليه ، وهو يلوم نفسه بشدة لأنَّه قصَّر في جهوده التي بذلها ليكافئ صديقه ، فجعله في موقف الغنيِّ عنه ، بل جعل الكاتب من نفسه في غاية الحاجة إليه ، وحاول أن يكسب مودَّته من خلال مدح أخلاقه ، وقد مالَ الكاتب إلى الإيجاز في رسالتِهِ ، لكنَّهُ حقَّقَ منحىً بلاغياً جميلاً وهدفاً منشوداً.

ممَّا مرَّ نجد أنَّ هذه الرسائل خصبة المضامين ، مليئة بالعواطف الجيَّاشة التي تعبِّرُ عن ذات الكاتب وتترجم عما في شَخصِيَّتِهِ ، وتعكس أحوال المجتمع العبَّاسي وأجواء العصر.

المبحث الرَّابع

المديح :

يقصد فيه (المدح للشيء بفضائله الخاصية ، لا بما هو عرضي فيه)[1] ، فهو وصفُ الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها ، يكون نعتاً حميداً ، وهذا يصحُّ من المولى في حقِّ عبدهِ ، فقد قال تعالى في حقِّ نبيّهِ أيُّوب عليه السلام : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[2]. وقال تعالى لنبيّهِ محمَّد "صلى الله عليه وسلَّم" : (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[3]. فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة[4] ، ولقدْ كُتِبَت رسائل عديدة في المديح لأنَّ هذا اللون من الرسائل المتبادلة بين الأصدقاء والمتحابِّين ، يصدر عن نفسٍ مملوءة بالغبطة ، استهلَّها الكاتب بالشوق والمودَّة للمشوق إليه ، وبتعظيمٍ كثير له أو لعلمه أو لمساعدته إيَّاه معْترِفاً له بالجميل والعِرْفان ، وحريٌّ بالكاتب أنْ يأخذ بالكلمات المنتقاة ومكانة المخاطب وبالألفاظ التي تليق بهم ، لأنَّها تعكس أخلاق الكاتب وسلوكه بوضوح ، ولهذا برزت العناية

(1) نقد الشعر : 34.
(2) سورة ص : الآية 44.
(3) سورة القلم : الآية 4.
(4) ينظر: المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف : 253.

بالشكل ، إذْ يعبِّر عنها صاحبها بألفاظ وعبارات المدح والإطراء ، فضلاً عن تنوُّع الأساليب كلٌّ حسب ثقافته[1].

وإذا كان لعاطفة الإعجاب مشاركةٌ في إثارة الانفعالات التي تبعث على كتابة الرسائل ، وأهميَّةٌ في صدق الشُّعور ، والإخلاص في التعبير عمَّا يختلج في صدر الأديب ، فإنَّ هذه العاطفة هي في غرض المديح أوفر ، وبه ألصق ، فالكاتب إنْ عبَّر ، فإنَّما يعبِّر عن شعوره تجاه صديقٍ من الأصدقاء ، أو فرد من الأفراد ، مَلَكَ عليه إحسَاسه ، وأثار في نفسه روح الإكبار والإحترام[2].

وقد سار الكتَّاب العبَّاسيُّون على الشَّاكلة نفسها في تناول ألفاظ المديح فهذا الحسن بن وهب يكتب إلى إبراهيم بن العبَّاس يمتدح بلاغته قائلاً :

(...وَصَل كِتابُك فما رأيتُ كِتاباً أسهلَ فُنوناً ، ولا أملسَ مُتوناً ، ولا أكثر عيوناً ، ولا أحسن مقاطع ومطالعِ ، منه؛ أنجزتَ فيه عِدَة الرأي ، وبشرى الفِراسةِ ، وعادَ الظنُّ يقيناً ، والأملُ مَبْلوغاً ، والحمدُ للّه الذي بنِعْمتِه تتمّ الصالحات)[3].

هذه رسالة جوابية موجزة جاءت ردَّاً من كاتبها على رسالةٍ بليغةٍ وصلت إليه من صديقه، فوجد فيها أموراً فنيَّة وذوقية رفيعة ، ومَدَحَ فيها سهولة التعبير وعمق المعاني وحسن الصياغة . وما الكتابة إلاَّ صورة جليَّة عن الكاتب . ولذلك شرعَ الحسنُ بنُ وهب يمدح صاحب الكتاب ويثني على انجازه الرائع من حيث سَداد الرأي والتوفيق الذي تمَّ بنعمة الله عزَّ وجل ، ولله الحمد من قَبْلُ ومِن بَعْدُ.

وهذه رسالة أخرى للحسن بن وهب في مدح شعر أبي تمام الطائي ، والإشادة ببلاغته ، إذ يقول :

(أنتَ . حفظكَ الله . تَحْتَذي من البَيَانِ في النِّظَام ، مِثلَ ما نَقصد نحن في النَّثر من الإفْهام[1] ، والفضلُ لك – أعزّك الله – إذْ كنتَ تَأتِي به في غَايَة الاقْتِدار ، على غايَةِ

---

(5) ينظر : فنّ الرسائل في الأندلس ، فادي رشيد حلاَّق نحَّال ، أطروحة دكتوراه . جامعة بغداد ، 1410هـ . 1989م : 91.

(6) ينظر : فنُّ المديح وتطوُّرهُ في الشِّعر العربي ، أحمد أبو حاقة ، منشورات دار الشرق الجديد : 5.

(1) العقد الفريد : 2 / 196.

الاقْتِصَار ، في منظُوم الأشْعار ، فَتَحُلَّ مُتَعَقَّدهُ ، وتَربُط مُتَشرّده ، وتنظُم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصِّله في حدوده ، وتخرجه في قيوده. ثم لا تأتي به مهملاً فيستبهم ، ولا مشتركاً فيلتبس ، ولا متعقداً فيطول ، ولا متكلفاً فيحول؛ فهو منك كالمعجزةِ تُضرَبُ فيه الأمْثَال ، وتُشْرح فيه المقال؛ فلا أعدمنا الله هَداياك واردة ، وفرائدك وافدة)[2].

مرَّ بنا في مقدِّمة الحديث عن المديح بأنَّه وصفٌ لأخلاقِ الممدوح الحميدة أو خصائصه الفريدة التي يتمتَّع بها ، والبلاغة وحسن البيان يُعدَّان ضمن تلك الخصائص التي يمتدح عليهما صاحبهما ، وهذا ما نهجه الحسن بن وهب في رسالته ، إذ امتدح شِعرَ أبي تمَّام مؤكِّداً على براعته وتفوُّقه في النَّظْم ، وحسن صياغته دون تعقيدٍ ولا تكلُّف. إذْ جعل من نظم أبي تمَّام كالمعجزة ، لأنَّ الأمثال تضرب في شِعْرِهِ. وهو يشتمل على عيون الفصاحة وحسن المقال ، فتجد الكاتب كمن يقف حائرا أمام براعة صديقه. ويبدو (أنَّ الشُّعراء كانوا أحياناً يصفون روعة شعرهم وقدرتهم على استنباط الدرر واللآلي الشعرية)[3] ، وأكثرهم ترديداً لهذا الوصف أبا تمَّام ، ممَّا دعا الحسن بن وهب إلى كتابة هذه الرِّسالة التي يؤيِّد فيها تفوُّقَ صديقه ويشيد ببلاغته.

وكتب أبو علي البصير[4] إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان[5] يمدحه برسالة يقول فيها :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحِيْم : أوجَبُ المَعْروفِ شُكْراً ، وأحْسَنَه عِنْدَ الأحْرارِ مَوْقِعاً ، معروفك عندي ، وذلك أنَّكَ تَطَوَّعْتَ بهِ مبتدِئَاً ، وَشَفَعْت ما تَقَدَّمَ منهُ مُتفَضِّلاً ، عن غير كدٍّ لي ألْزَمَكَ

---

(2) (مثل ما يُقصَد بحرٌ في الدُّرَرِ من الأفهام)) ، هكذا وردت هذه العبارة في جمهرة رسائل العرب : 4 / 34 ، وذكرها الدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر العَبَّاسِي الأوَّل بهذا الشَّكل (مثل ما يُقصَد بحرٌ من الدرَرِ في الأفهام)) ، : 501. وكلاهما نقلاً عن زهر الآداب وثمر الألباب ، باختلاف الطبعة التي أخذا عنها هذا النَّص.

(3) زهر الآداب وثمر الألباب : 3 / 891.

(1) ينظر : تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 501.

(2) أبو علي البصير : كان شاعراً بليغا مترسِّلا ، ليس له في زمانه ثانٍ ، بينه وبين أبي العيناء مهاجاة ومكاتبات طيبة وله فيه عدة أشعار وله كتاب رسائل وكتاب ديوان شعره. (ينظر: طبقات الشُّعراء: 398، و الفهرست : 178 ، و وفيات الأعيان : 4 / 345).

(3) عبيد الله بن يحيى بن خاقان: أبو الحسن ، أحدُ الوزراء المشهورين في الدَّولة العبَّاسية ، كان وزيراً للخليفة المتوكِّل إلى ان قتل الأخير. وقد جرت له أمور ، وانخفاض وارتفاع ، نفاهُ الخليفة المستعين إلى الرَّقَّة سنة ثمانٍ وأربعين ومائتين ، ثمّ استوزرهُ الخليفة المعتمد سنة ستٍّ وخمسين ومائتين. توفّي الوزير عبيد الله سنة 263هـ. (ينظر: تاريخ الإسلام : 20/ 132).

دَيْناً ، أوْ أوجب عليكَ حقّاً ، ثمَّ يَقْطَعني عن الأخْذِ بِحَظِّي من لِقائِكَ ، وتَعْريفكَ ما أنا عليهِ من شُكْرِ أنْعامِكَ ، والانتِسابِ إلى نِعْمَتِكَ ، وإفْرادي إيَّاكَ بالتأميل دون غيركَ ، تَخَلُّفي عن منزِلة الخاصَّة ، وَرَغبَتي عن مُشارَكَةِ العامَّة ، وأنِّي لسْتُ مُعْتاداً للخِدمة ولا الملازمة ، ولا قويّاً على المُغَادَاةِ والمُراوحَة ، فلا يَمْنَعَنَّك ارْتِفاعُ قَدْرِكَ ، وعُلوِّ منْزِلَتِكَ ، وما تُعاني مِن جَلائِلِ الأمور التي تَشْغَلُ عمَّن قَدُمَت حُرْمَتُهُ ، ووَجَبَ حقُّهُ ، ونَسِيَ أنْ يُذَكِّرَ بنَفْسِهِ ، مِنْ أنْ تَتَطوَّل بتَجْديدِ ذِكْري وخَبَري ، والإصْغاءِ إلى من يَحُثُّكَ على وصْلي وبِرِّي ، ويُرَغِّبَكَ في الصَّنيعَةِ عِندي ، وأنا أسْأل الذي وهب ذلك منكَ بِغَيرِ سَعْيٍ منِّي لهُ ، ولا نَصَبٍ كابَدْتُهُ فيه ، أنْ يُنْسِئَ لكَ ولِكافَّةِ الأحْرار في أجَلك ، وأنْ يَمُنَّ عليكَ بِحِياطَةِ نِعْمتَكَ ، وكَبْتِ عَدُوِّكَ ، والزِّيادةِ في القُدْرةِ لكَ ، ولا يُخْلي مَكانَكَ منكَ ، والله يَعْلمُ أنِّي لا أحِبُّ أنْ أتَحَمَّلَ مِنَّةً إلاَّ لكَ ، ولا أعْتدُّ عَارِفَةً مذْكورَةً إلاَّ مِنْكَ)[1].

بدأت الرِّسالة بالشُّكر والعِرْفان من المُرْسِل إلى المُرْسَل إليهِ ، حيث امتدحَهُ على كرمِهِ وفضْلِه الأسْبَق الَّذي فعله ابتغاء الخير وكان تطوُّعاً مِن قِبَلِهِ لا عن دافِعٍ آخر ، ولم ينقطع الكاتب عن شكرِ صديقه ولكنَّه وصل بعد هذه المُقَدِّمة إلى الغاية المرجوَّة ، فهو يطلب حاجةً لم يسمِّها بل اكتفى باللمحة الدَّالة عليها ، فهو يتكسَّب عن طريق المديح ولكن ليس بالشِّعر وإنَّما بالنَّثر ، وكذلك فعل بعض الكتَّاب في العصر العَبَّاسِي ، وهذه الرِّسالة خير شاهدٍ على ذلك. فقد مدح الكاتب وأثنى على صديقه ليطلب منه حاجةً ، ولكي يكون طلبه مستساغاً فقد ارتأى تذكيره بوجوب حقِّهِ وقِدَمِ حُرْمتِهِ. فهو يعرف كيف وإلى مَن يتوجَّه في عرض حاجته ، فهو لا يطلب المساعدة من شخصٍ غير صديقه هذا ، ولا يتوسَّلُ معروفاً مِن غيره.

نجِدُ العاطفة في هذه الرِّسالة أقلُّ تأثيراً في النفوس وتكاد تكون فاترةً ، وربَّما يعود السبب في ذلك إلى كونها بعيدةً عن الصِّدقِ في بعض عباراتها ، أو لوجود عنصر المبالغة الواضح في فكرتها العامَّة.

(1) جمهرة رسائل العرب : 4 / 158 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 384.

ومن الرسائل الفريدة في موضوعها ومعانيها[1] ما كتبه عبد الله بن المقفَّع يمدح أحد أصدقائه قائلاً :

(إنِّي مُخبِرُكَ عن صَاحِبٍ لي كانَ مِنْ أعْظَمِ النَّاسِ في عَيْنِي ، وكان رَأْسُ مَا أعْظَمَهُ في عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ : كَان خارجاً من سلطانِ بطنهِ ، فلا يتَشَهَّى مَا لا يَجِدُ ، ولا يُكْثِرُ إذا وَجَدَ. وكان خارجاً من سُلطانِ فَرْجِهِ ، فلا يَدعُو إليهِ رِيْبَةً ، ولا يُسْتَخَفُّ لَهُ رأْيَاً ولا بَدَناً. وكان خارجاً من سلطان لِسَانِهِ ، فلا يقولُ ما لا يَعْلَمُ ، ولا يُنَازِعُ في ما يَعْلَمُ. وكان خَارِجَاً مِنْ سلطانِ الجَهالةِ ، فَلاَ يُقْدِمُ أبداً إلا على ثِقَةٍ بِمَنْفَعَةٍ.وكان أكثَرَ دهرِهِ صَامِتاً ، فإذا نَطَقَ بَذَّ[2] النَّاطِقِينَ ، كانَ يُرى ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفَاً ، فَإِذَا جَاءَ الجِدُّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيَاً ، وكان لا يَدخُلُ في دَعْوَىً ، ولا يَشْتَرِكُ في مِرَاءٍ ، ولا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حتى يَرَى قَاضِيَاً عَدْلاً وشهوداً عُدُولاً ، وكانَ لا يَلومُ أحَداً عَلَى ما قَدْ يَكُونُ العُذْرُ في مِثلهِ حتى يَعْلَمَ ما اعْتِذَارُهُ ، وكان لا يَشْكُو وَجَعاً إلاَّ إلى مَنْ يَرجُو عندَهُ البُرْءَ ، وكان لا يَسْتَشِيرُ صاحِباً إلاَّ مَنْ يَرجُو عندهُ النَّصيحةِ ، وكان لا يَتَبَرَّمُ ، ولا يَتَسخَّطُ ، ولا يَتشْهَّى ، ولا يَتشَكَّى ، وكانَ لا يَنْقَمُ على الوَلِيِّ ، ولا يَغْفَلُ عن العَدُوِّ ، ولا يَخُصُّ نفسَهُ دونَ إخْوَانِهِ بشيءٍ من اهتِمَامِهِ ، فعليكَ بهذهِ الأخْلاقِ إنْ أطَقْتَ، ولَن تُطِيق ، ولكن أخْذُ القليلِ خيرٌ من تَركِ الجَميع)[3].

إنَّ فكرةَ النَّص تدورُ حولَ حقوقِ الأصدقاءِ على بعضِهِم ، فقد مَدحَ الكاتب صديقه وذكر الخصال الحميدة التي رفعت من قدْره عند الناس عامة وعند أصدقائه خاصَّة ، وقد وضَّحها الأديب عن طريق الإخبار بأهمِّ ما ميَّز صديقه الذي توفَّرت فيه تلك الخصال ومنها : أنَّه لم يخضع لسلطان الشَرَهِ والبَطَر ، وهو لا يقول ما لا يعلم ، فلا يتكلَّم بجهالة ، فإنْ صدر منه قول أو فعلٌ فإنَّما يصدر عنه بعد ثقة بنفع الآخرين ، وهو كثير الصمت ، سليم المنطق ، تجده

(2) وردت هذه القطعة في الأدب الكبير والأدب الصغير : 129 ، وفي زهر الآداب وثمر الألباب : 1 / 242 ، منسوبة إلى ابن المقفَّع ، أمَّا الشريف الرضي في نهج البلاغة : 2 / 147 ، فقد نسبها إلى علي ابن أبي طالب كرَّم الله وجهه ، ونسبها ابن قتيبة في عيون الأخبار: 2 / 383 ، إلى الحسن بن علي رضي الله عنه ، مع اختلاف في رواية كلٍّ منهم.

(1) بذَّ : بَذَّ القائلين أي سبقهم وغلبهم. وبَذَّ القومَ يَبُذُّهم بذّاً ، سَبقَهُم وغلبهم وكل غالب باذٌّ ، والعرب تقول: بَذَّ فلان فلاناً يَبُذُّه بذاً إذا ما علاه وفاقه في حُسْنٍ أَو عمل. (لسان العرب ، مادة بَذَذَ : 3 / 477).

(2) الأدب الكبير والأدب الصغير : 129 ، و زهر الآداب وثمر الألباب : 1 / 242.

أحسن الحاضرين كلاما ومنطقا ، وتراه في السِّلْمِ والرَّخاء ضعيفا مستضعفا حين لا يُعْتَدى على حقوقه ولا تُمَسُّ كرامته بسوء ، فإذا حصل خلاف ذلك فإنَّك تجده على حالٍ أخرى ، فهو شجاع مقدام ساعة الجِدْ. ومن أخلاقه حبُّ العدل وعدم التذلُّل إلى النَّاس ، وهو يتَّبع الحكمة والمشورة إذا صدرت من أهلها ، ولا تراه يضجر أو يغضب لأنَّه إنسانٌ متَّزِن يعرف كيف يتعامل مع الآخرين ، والأنانيَّة لا محلَّ لها في نفْسه ، لأنَّه لا يدَّخرُ جُهْداً في سبيل إخوانه ، فيهتم بهم ويجد لهم الحلول عندما يعجزون عنها ، ويساندهم إذا احتاجوا إليه.

وفي ختام النَّص حضَّ الكاتبُ على الالتزام بمثل هذه الأخلاق ، وأشار إلى أنَّ الإنسان لن يستطيعَ إدراكها كلَّها ، ولكنَّهُ قالَ : (أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع).

نلحظ أنَّ الكاتب اعتمد على صورةٍ معينة لِشَخْصِيَّةٍ مِثاليَّةٍ لا وجود لها في واقع الكاتب ، أو بعبارة ثانية ، صعوبة وجود مثل هذه الأخلاق مجتمعة عند إنسانٍ في زمن النص، إلاَّ أنَّ الهدف الذي سعى إليه الكاتب يجعلنا لا نهتم كثيراً فيما إذا كانت شخصيَّة الصديق حقيقية أم صورة مرسومة في خيال الكاتب. فقد هدف النَّص إلى نظرة عامَّة حول مكارم الأخلاق ، ومحاولة إلزام النفس بها أو ببعض منها.

ويسترسل كتَّاب العصر في مدْحِ الأصدقاء وتِعْدادِ خصالهم الحميدة فهذا أحمد بن سليمان ابن وهب[1] يكتب إلى صديقه مُشِيداً بِخِصالِهِ الحميدة قائِلاً :

(ليسَ عنِ الصَّديقِ المُخْلصِ ، والأخِ المُشَارِكِ ، في الأحْوالِ كُلِّها مَذهبٌ ولا وَراءَه ، للواثِقِ به مَطْلب ، والشاعر يقول:

وإذَا يُصيْبُكَ والحَوَادِثُ جَمّةٌ حَدَثٌ حَدَاكَ إلى أخِيْكَ الأوْثَقِ

وأنتَ الأخُ الأوثَق ، والوليُّ المُشْفِق ، والصديق الوَصول ، والمُشَارِك في المكروه والمحبوب ، قدْ عرَّفَني الله من صِدْق صفَائِكَ ، وكَرَم وَفَائِك ، على الأحْوالِ المُتَصَرِّفة ،

(1) أحمد بن سليمان بن وهب : أبو الفضل ، الكاتب ، كان أبوه وزيراً ، وكذلك عمه الحسن بن وهب معروفان مشهوران ، وكان أبو الفضل هذا بارعاً فاضلاً ناظماً ناثراً ، تقلد الأعمال ، ونظر للسلطان في جباية الأموال وله من التصنيفات: ديوان شعره ، وكتاب ديوان رسائله ، توفِّيَ سنة 285 هـ. (ينظر : معجم الأدباء : 1 / 103).

والأزْمِنَة المُتقلِّبَة ، ما يَسْتغرِق الشُّكْر ، ويسْتَعْبِدُ الحرَّ ، وما مِن يَومٍ يأْتي عليَّ إلاَّ وَثِقَتي بِكَ تَزْدادُ اسْتِحْكاماً ، واعْتِمَادِي عليكَ يزْدادُ تأكُّداً والتئاماً ، أنْبَسِط في حوائِجي ، وأثق بِنُجْح مسألتي ، والله أسألُ لك طولَ البقاء ، في أدْوَمِ النعمةِ وأسْبَغِهَا وأكمَلِ العَوافِي وأتَمِّها، وألاَّ يسلُبَ الدُّنيا نَضْرَتَها بك ، وبَهجَتَها بِبَقائِك ، فما أعْرِفُ بهذا الدَّهرِ المُتَنكِّر في حالاته ، حَسَنةً سِواك ، ولا حِيلةً غَيْرَكَ ، فأُعِيذُك بالله من العُيون الطَامِحة ، والألْسِنَة القادِحَة وأسأله أن يَجْعَلكَ في حِرْزِه الذي لا يُرام ، وكَنَفِهِ الذي لا يُضَام ، وأن يَحْرُسَك بعينه التي لا تنام ، إنَّهُ ذو المَنِّ والإنْعَام)[1].

مدح الكاتب صديقه على أفعاله وصفاته ، حيث أطنب في ذكرها فجاءت المفردات والألفاظ مدحاً خالصاً من خلال تعداده لخصال صديقه ، فهو المخلص والمتعاون والمساند الذِّي لا غِنى عنه ، وهو المتواجد دائما في السَّرَّاء والضَّرَّاء يشارك صاحبه ويؤازره.

نستشفُّ من خلال قراءتنا لهذا النَّص ، أنَّ هناك صنيعاً جميلاً قد أسْداه الصَّديق إلى الكاتب ممَّا دفع الأخير إلى صياغة هذه الرِّسالة التِّي يُقِرُّ فيها بمعروفهِ.

ويبدو أنَّ الكاتب متأثِّرٌ بحُسْنِ شمائلِ صديقه ، فتجِده ينسِبُ إليه كثيراً مِن معاني الصَّداقة والأُخوَّة والإخلاص ، وينْعته بكلِّ ما هو جميل ونبيل ، لا لشيء إلاَّ لأنَّه لمس فيه ذلك فشعر برغبة المدح تسْري في أعماقه ، وواجب الشكر يستولي على قلبه دون قيدٍ أو شرْط.

(2) م.ن : 3 / 62.

المبحث الخامس

العتاب :

هو أحد الموضوعات الإخْوانِيَّة الذي يعالج جانباً من العلاقات الاجتماعية بين الأصدقاء والأصحاب ، إذا أصابها فتورٌ أو ضَعفٌ ويؤكِّد روابط الأخوَّة وعهود المودَّة والإخاء ، وأواصر الصداقة والوفاء. وقد شاع هذا اللون من الرسائل بين الأقارب والأصدقاء ، فكثيراً ما كان يحدثُ بينهم ما يوجب العتاب ممَّا صَدَرَ عن بعضهم من مقالةِ سوءٍ أو تصرُّف غير لائق ، وما إلى ذلك من الأمور التي دعت إلى الكتابة التي تكون عادةً هادئة ليِّنة الخطاب رقيقة ، لاسْتدرار العطف ، وإثارة المشاعر ، وأحياناً أخرى يشتدُّ فيها الخطاب دون التعنيف الذي يوجب البغضاء ، لأنَّها تخرج من نفسٍ صادقة ومُحِبَّة لا تقصد الإساءة ، لكنَّ الغرضَ من عتاب الأصدقاء إزالة اللَّبَس بينهم ، ومحو الغشاوة عن الحقيقة التي زيَّفها كلام حاسد أو ظالم[1]. ولأبن رشيق القيرواني رأيٌ آخَر في عتاب الأصدقاء إذ يقول: (العتاب . وإنْ كان حياة المودَّة ، وشاهِدَ الوفاءِ .

(1) ينظر : الرسائل الفنيَّة في العصر الإسلامي حتَّى نهاية العصر الأموي : 298 ، و فن الرسائل في الأندلس : 103.

فإنّه باب من أبواب الخديعة يسرع إلى الهجاء ، وسببٌ وكيد من أسباب القطيعة والجفاء ، فإذا قلَّ كان داعية الألفة ، وقيد الصحبة ، وإذا كثر خشن جانبه وثقل صاحبه)[1]. إذاً فالعتاب مستحسنٌ إذا لم يتكرَّر بغير داعٍ إليه ولذلك قال أبو هلال العسكري : (مُدِح العِتاب وذُمَّ ، فالمدح قولهم : ويبقى الودُّ ما بقي العِتاب. والذمُّ قولهم : العتاب يبعث على التجني والتجني أخو المحاجة والمحاجة أخت العداوة والعداوة أم القطيعة)[2]. أمَّا أفضل العِتاب فهو (ما غَرَس العَفْو وأثْمَر المَحبَّة. وعتَبٌ يوجِبُ العفو أفضلُ من تَركٍ يُعقِبُ الجَفاء)[3].

أمَّا طرائق العِتاب فكثيرة[4] ، منها ما يدخله الاحتجاج والانتصاف ، مثل رسالة غسَّان بن عبد الحميد الذي يعاتب فيها صديقاً له ، ولكونها رسالة طويلة فقد اجْتَزأْنا قوله:

(... وإنَّه بَلَغنِي أنَّ غاشّاً ظَالِماً أَتَاكَ بِأَمرٍ ، لَمْ أكُن لَهُ أهْلاً ، ولَمْ تكُن بقَبُولِهِ خَليقاً ، لأنِّي لم أكُن لأَشْباهِهِ مَعْروفاً ، ولَمْ أكُن على اسْتِمَاعِ مِثْلِهِ مَخُوفاً ، فَوَجَدَ فيكَ مَسَاغاً ، وعِنْدَكَ مُسْتَقَرّاً ، وكُنتُ أَحْسَنَ منَازِلَ إخوانكَ عندكَ ، والثِّقةَ لَهُم مِنْكَ في حِصْنٍ حَصِيْنٍ ، ومَحلٍّ مكينٍ ، لا يَنَالَهُ مِنْ أكاذيبِ الكاذبينَ ، ولا أقاويلِ المفسدينَ ، وذلكَ أنَّ الكاذبَ كانَ بالتُهْمةِ على منزِلَتي وحُرْمَتي ، أحقَّ منِّي بالتُّهمَةِ على رأيي وخُلُقي ، وأنَا كنتُ عندكَ بالثِّقة في وَفَائِي ، أَحقَّ منهُ بالتَّصديقِ في عَضيهَتِه[5] إيَّاي ، فإنَّ الأخ المَخْبُور أوْلى بالثِّقةِ مِنَ السَّاعي بالكَذِب والزُّور ، وإذا كانَ يُحْفِظ[6] الإخوان ما هو مَثْلومٌ[7] بأيدي السُّفَهاء ، إذا شاءُوا سَعَوا فَقُبِل قولُهُم ، فكيف تَبْقَى على ذلكَ أُخوَّةٌ ، أو تُرْعى مَعَه حُرْمَةٌ ، أوْ يَصْلُح عليهِ قَلْبٌ ، أو يسْلمَ

---

(2) العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده : 2 / 160.

(3) جمهرة الأمثال ، أبو هلال العسكري (ت 395هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، دار الفكر . بيروت ، ط 2 ، 1988م : 1 / 69.

(4) تزيين الأسواق في أخبار العشَّاق ، داوود الأنطاكي (ت 1008هـ) ، دار حمد ومحيو ، لبنان . بيروت، ط 1 ، 1972م : 2 / 438.

(1) ينظر : العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده : 2 / 160.

(2) عضيهته: العَضِيهةُ : هي الإفْكُ والبُهْتانُ وقولُ الزور.(كتاب العين ، باب عضه : 1 / 99. ولسان العرب ، مادة عضه : 13 / 515).

(3) يُحْفِظ : يُغْضِب ، وهي من الحفيظة أي : الغضب. (لسان العرب ، مادة حَفَظَ : 7 / 440).

( ) مثلوم : ثَلَمَ الإناءَ والسيفَ: كسر طَرَفَه ، يقال في الإناء ثَلْم إذا انكسر من شَفَتِه شيء ، وفي السيف ثَلْم. والثُّلْمة الموضع الذي قد انْثَلم وجمعها ثُلَم. (لسان العرب ، مادة ثَلَمَ :

صَدْرٌ؟ وكنتَ إذْ حذَّرتَ أخَاكَ مِنْ أهلِ الدناءةِ حَقِيقاً أنْ تَحْذَرَهُمْ في إخْوانِكَ الَّذين وَقَع إحْسانُكَ عليهِم ، فَلا تَقْبَلُ سِعايَتَهُم بهم ، وكيفَ تَسْخَط على أهلِ الدناءةِ لإخائك وتَرْضى قَولَهُم على إخوانِكَ؟ لقد عَرَفْتَ أنَّ على الأخِ مِنْ ردِّ الكَذِبَ عنْ أخيهِ مَا حَسَّنَ الغَيْبَ لَهُ ، فَإذَا لَمْ تَكُن رَادَّاً مُكَذِّباً ، فَهَلاَّ كُنتَ فيه واقِفاً مُتَأمِّلا حتَّى تكشِفَهُ وَيَتبيَّن لك حَقَّهُ مِن بَاطِلِهِ! فإنْ وجَدْتَهُ حَقَّاً أتيتَ ما أتيتَ على بيِّنةٍ لكَ فيْهَا حُجَّةٌ ، وإنْ وجَدتَهُ باطِلاً كانَ أنْ تسْتَخْرِجَ أَخَاكَ مِنْ تُهْمَةٍ ، خيْراً مِنْ أنْ تُقِيمَ لهُ على سَخْطَةٍ[1] ولم يكُن مِنْهُ إساءةٌ،...)[2]. وفي ختام الرِّسالة يقول : **(... واعلَمْ أنَّا لَم نَحُلْ عن حَبْسِ الرَّأْيِ في حِفْظِ حقِّكَ ساعَةً مِنْ لَيلٍ ولا نَهارٍ ، في سِرٍّ ولا عَلانيَّة ، ولا غيْبَةٍ ولا شهادَة ، ولا نَأْتي أمراً ينْقُص مِن حُرْمَتِنَا والسَّلام)**[3].

عبَّرَ الكاتب عن استِيائه إزاء بعض تصرُّفات أحد أصدقائه ، ولكنَّه لم يباشر الكلام الموجَّه إلى صديقه إلاَّ بعد مقدمة مسهبة علَّقَ عليها الدكتور شوقي ضيف قائلاً : (وغسَّان يتحدَّث عمَّا بين النَّاس من حُرَمٍ وحقوق ومودَّةٍ وأخوَّة ، ويرى أنَّهُ لا بدَّ للأخوَّة من الوفاء الذي يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بدَّ لها من الأمانة التي تمنع الخيانة بين الإخوان وتَحول بينهم وبين القطيعة المرذولة ، ولا بدَّ لها من النهوض بجميع متطلَّباتها من الصِّيانة والثِّقة وتوطين النَّفس على أن لا يقوم الهجران بين الأخ وأخيه. ويأخذ غسَّان في تصوير معنى دقيق غاية الدقَّة ، وهو أنَّ من يؤدِّي حقوق الأخوَّة إلى أخيه لعلَّهُ أكثر منه سعادةً بما يؤدَّى إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعلَّه أشقى من أخيه الذي يغمُّه تضييع هذه الحقوق، لأنّه إنَّما يدخله الغمُّ بتقصير غيره ، أمَّا صاحبه المضيِّع لتلك الحقوق فإنَّه يدخُل الغمَّ والشَّقاءَ والنَّقصَ على نفسِهِ بنفسِهِ ، والأوَّل يجِد من أخيه إذا خانه عِوَضاً في أخٍ آخَر صادِق ، أمَّا الثاني فإنَّه لا يخْسر شخصاً ولا أخاً ، إنَّما يخسر نفسه التي بين جنبيه بما أدخل عليها من كَرْب الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافيها ، كخسارةٍ لا يمكن مزايلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حِوَلا ولا منصرفا. ويمضي غسَّان

---

(5) سخطة : السُّخْطُ والسَّخَطُ ضدّ الرِّضا ، والفعل منه سَخِطَ أي كَرِهَ. (لسان العرب ، مادة سَخَطَ : 7 / 312).

(6) جمهرة رسائل العرب : 3 / 116 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 12 / 198.

(1) جمهرة رسائل العرب : 3 / 120 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 12 / 198.

فيفصِّل القول في خيانة الأخ لأخيه وتضييعِهِ لنعمة الوفاء التي أنعم الله بها على عبادهِ ،...)[1]. وتكاد تكون المقدّمة بمثابة بحثٍ واسع في واجبات الإخْوان وحقوقهم[2].

وقد هيَّأ الكاتبُ جوَّاً مناسباً للدخول إلى الموضوع الرئيس في الرِّسالة بعد تلك المقدِّمة ، إذْ شَرَعَ يعاتب صديقه لأنَّه وَثِقَ بكلام الغاشِّ والواشي الظالم الذي ادَّعى عليه أمرا مُنكَراً لم يفعَلهُ ، ولذلك جاء عتابه بلهْجَةٍ مِلؤُها المرارة والعَجَب مِن أخٍ مُقَرَّبٍ ومِن أهلِ الثِّقة فلا ينبغي له تقَبُّل كلام الساعي بالكذب ، لأنَّ ما نُقِلَ إليهِ من كلامٍ لا يصحُّ قبوله من جهة صديقه، ولا يليق بأنْ يلصقَ بالكاتِب الذي يبدو منفَعِلاً في عتابِهِ لِصاحبه ويكادُ يحمِّله سبب النَّكد الذي حصل بينهما ، والتُّهمة التي يَبْرَأ منها ويؤكِّد أنَّها أُلصِقَت به عَمْداً من أهل الكذب والزُّور ، فهي نتيجة إخفاق صديقِهِ في ردِّ الكاذب وعدم تثبُّتِهِ من صحَّة ما نُقِل إليهِ ، وهذه الأخطاء كفيلةٌ لأنْ تضيِّعَ الصداقة التي جمعتْهُما. وقد عدَّه مقصِّراً في مراعاة مبدأ الأخوَّة القائم بينهما، وجعله المسؤول عمَّا آلت إليه الأمور. فمن واجب الصَّديق العاقل (أنْ لا يُقَصِّر عن معاتبة أخيه على زلَّتِه ، لأنَّ من لم يُعاتِبْ على الزَّلة لم يَكُنْ بحافِظٍ للخِلَّة ، ومَن أعْتبَ لَمْ يَذْنَبْ ، كما أنَّ مَن اغتَفَرَ لَم يُعاقِبْ ، وظاهر العِتابْ خيرٌ مِن مكتومِ الحِقد...)[3].

وبِما أنَّ الهدف من هذه الرِّسالة هو العِتاب الأخوي الذي يُعيدُ الصَّداقة إلى عافيتها ويُبدِّدُ الشُّكوك لتعود الثقة بين الصديقين ، فإنَّ الكاتب في ختام رسالتِه خفَّفَ مِن حِدَّةِ عتابِه وكشف عن حقيقة تمسُّكِهِ بدوام الصداقة والمحبَّة بينهما ، ولهذا طلب منه أنْ يتأمَّل الكلام الذي وصله حتَّى يتبيَّنَ له الحقَّ مِنَ الباطل.

ويسترسل كتَّاب العصر في الكتابة الإخْوانِيَّة على النمط نفسه ، إذْ يلقانا يوسف بن القاسم[4] في رسالته إلى صديقه محمَّد بن زياد الحارثي[1] يعاتبه بقوله: **(حَفِظَكَ الله وحَاطَكَ ، رَأيْتُكَ – أكْرَمَكَ**

---

(2) تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 504.

(3) ينظر : م. ن : 505.

(1) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، محمَّد بن حبَّان البستي (ت 354 هـ) ، تحقيق : محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية . بيروت ، 1397هـ . 1977م : 181.

(2) يوسف بن القاسم: هو والد أحمد بن يوسف الكاتب ، وزير المأمون ، وكان يوسف مع خالِهِ بِشْر بن سُلَيمان على ديوان الكوفة أيَّام بني أُميَّة ، ثمَّ كتَبَ لِعَبْدِ الله بن علي في أوَّل الدَّولة العبَّاسيَّة بعدَ أنْ كانَ أبوهُ القاسِم يكتب لهُ. (ينظر: الأوراق . قسم أخبار الشعراء المُحْدَثين : 1 / 146).

الله – في خَرْجَتِكَ هذهِ رَغِبْتَ عن مُوَاصَلَتنا بكُتُبِك ، وإبْلاغِنا طيِّب خَبرَك ، وقطعْتَنا قَطْع ذي السَّلْوَة[2] ، أو أخي المِلَّة ، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقاً ، وإلى البعد منا توَّاقاً ، فوَقَع بُعْدَك بحيثُ توخَّيْت مِن جهتين: إحْدَاهُمَا حلاوةُ الوِلايَة ، والأخرى لَذَّة الراحَة ، فإنْ يكن ذلكَ كَمَا رجمْناهُ ، قاطعناك مُجْمِلين ، أو لَبِسْنَاك على يَقِين ، وإنْ يَكُن إدْلالاً بهديَّة أعْدَدْتَها لَنا مِن نَاحِيَة عملك ، فَلَيْسَ قَدْرُ الهدايَا وإنْ كَثُرَت ، ولا الفوائد وإنْ جُلَّتْ احتمال لوم الإخوان إذْ كانَتِ الهَدَايَا إنَّمَا تُرَادُ لَهُم ، والفَوَائِدُ إنَّمَا تُنَالُ بِهِم ، والمُبَاهَاةُ بأعراضِ الدُّنْيا تراد لخِلْطَتِهِم ، وما أدْري ما أقولُ في اخْتِيَارِكَ تَرْك المُكَاتَبة المُحدِّثة عن العَتْبِ بالأسرارِ المفهومة ، حتى كأنها محادثةُ والحضور ، على تَنَائي الدُّور ، والقلوبُ بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدانُ متباعدة ، ولئن كَذَبَ فيكَ الرَّجاءُ ، لقَديماً عزَّ الوفاء ، وقد أصبتكَ مِن مَرارةِ العِتابِ بِمَا لا تُقِيمُ بعدَهُ على قَطِيْعَة ولا جفاء ، ولا تَتَوهَّمَنَّ أنِّي أردتُ إعانتكَ بإعْتابِي ، ولا إزراءك بكتابي ، فإنْ وَصَلْتَ فَمَشْكُور ، وإن قَطَعْت فَمَعْذُور ، والسَّلام)[3].

يعاتب الكاتب صديقه لقطيعته الطويلة وترك مراسلته إيَّاه كما في السَّابق ، فتجد عتابه رقيقاً في بعض أجزاء النَّص ، ولا يلبثُ أنْ يُعنِّفَ صاحبه (ولكن عُنف المتحضِّر المهذَّب الذي قد يمسُّ ولكنَّه لا يَخْدِش)[4] ، فالكاتب بعتابه يحاول إعادة الوصل إلى سابق عهده، فهو يعلم أنَّ إهمال العتاب يقودهما إلى الجفاء الطَّويل (لأنَّ ترخيص الصَّديق لصديقه في المقاطعة والمصارمة دالٌّ على ضعف الاعتقاد واستحالة الوداد)[5].

ويستمر العِتابُ على هذه الشَّاكلة في رسالة عبد الرَّحمن بن أحمد الحرَّاني إذْ بعثَ إلى صديقه محمَّد بن سهل يعاتبه قائِلاً :

---

(3) محمد بن زياد الحارثي : هو أخو يحيى بن زياد الحارثي ، شاعر مترسِّل بليغ ، له كتاب رسائل. (ينظر: الفهرست : 244).

(4) السَّلوة: سَلاهُ، سَلْواً وسُلُوّاً : نَسِيَهُ. وأسْلاهُ عنه فَتَسَلَّى. وسَلْوَة من العَيْش أَي : في رَخاءٍ وغَفْلة. (لسان العرب ، مادة سَلا : 14 / 394).

(1) كتاب الأوراق (قسم أخبار الشُّعراء المُحْدَثين) : 1 / 152 ، و رسالة الصداقة والصَّديق ، أبو حيَّان التوحيدي (ت 414 هـ) ، ط 2 ، (الكتاب ممزَّق) : 192.

(2) تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 493.

(3) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : 9 / 189.

(أعزّك الله، إنّ كُلَّ مجازاةٍ قاصرةٌ عن حقِّ السَّابقِ إلى اْفتتاحِ الوُدِّ ، وقد علمتَ أنِّي استقبلتكَ من الإقبالِ عليكَ بِمَا لَمْ تَسْتدعِه ، واعتمدتُك من الرَّغبة فِيكَ بما لمْ تُوله)[1].

الفكرة العامة في هذا النَّص لا تختلفُ عن الرِّسالة السَّابقة ، فهي عتاب من الكاتب لصديقهِ ، لا على سوءِ فهمٍ أو تقصيرٍ منه ، ولكن يعاتبه على عدم اكتراثه بمشاعر الودِّ والأخوَّة التي لمسها عندهُ ، ولم يعِرها اهتمامه أو يقابلها بمشاعر تكون كفؤاً لها. ولعلَّه لا يقصِدُ إلى عتاب صاحبه على فعلٍ معيَّنٍ بدر منه ، لكنَّه قصد برود العاطفة التي لاحظها وأنَّه قابل المحبَّة بعدم الاهتمام ، وهذا التصرُّف لم يقْبله الكاتب ، لذا كان يعاتبه بكلماتٍ معدودةٍ لم تتجاوز السطرين ، لكنَّها أفْضَت بالكثير من المعاني الإنسانية الهادفة.

وهذه رسالة كلثوم بن عمرو العتَّابي إلى أحد أصدقائه يعاتبه فيها عتاباً رقيقاً ويعبِّرُ فيه عن مدى اعتزازه به ، إذ يقول : **(لو اعْتَصَم شَوقي إليكَ بِمِثْل سُلُوّك عنِّي لم أبْذُل وَجْهَ الرَّغبة إليك ، ولم أتجشَّم مرارةَ تمادِيك ، ولكن استخفَّتْنَا صَبَابَتُنا ، فاحتملْنا قَسْوَتك ، لعظيم قَدْرِ مودّتِك ، وأنت أحقُّ من اقتصَّ لصِلَتِنا مِن جَفائِه ، ولِشَوقِنَا مِن إبْطَائِه)**[2].

بدأ الكاتب رسالته معبِّراً عن شدَّة شوقه إلى صديقه الذي يقابله بالانشغال عنه وعدم الاكتراث به ، فلو يستطيع الكاتب كبح جماح شوقه بمقدار انشغال صاحبه لما سأل عنه ولا رغِبَ بمودَّته من جديد ، لأنَّ صاحبه قد ركن إلى الجفاء والقسوة ، وهو صابِرٌ لا لشيءٍ آخرَ سوى فرط محبَّته وتقديرِهِ له. وهذه (صورة طريفة عرف كيف يستتمّها وكيف يرسمها في عباراتٍ موجزة رسماً يُبهِر قارئها ويجعله يكرِّر النظر فيها)[3] ونلحظ أنَّه يميل إلى الصِّدق والوفاء في هذا النَّص ، وهي عواطف قويَّة جيَّاشة تفضي بنبل أخلاق صاحبها وصِدقِهِ.

ومن الرسائل البليغة الموجَزة في العِتاب أيضاً ، ما كتبه الجاحظ[4] إلى صديقِهِ قُليب المغربي يقول فيها: **(واللهِ يا قُلَيبُ ، لولا أنَّ كَبِدي في هواكَ مَقروحَةٌ ، وروحِي بِكَ مجْروحَةٌ ،**

---

(4) العقد الفريد : 2 / 60 و جمهرة رسائل العرب : 4 / 37.

(1) زهر الآداب وثمر الألباب : 4 / 1056.

(2) تاريخ الأدب العربي (العصر العبَّاسِي الأوَّل) : 497.

(3) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر ، الأديب المشهور ، نشأ بالبصرة وكان ينتجع بغداد أواخر عصر المأمون ، وفي عصر المعتصم والواثق وبعض عصر المتوكِّل ، وكان مختصاً بابن الزيَّات ، توفِّيَ سنة 255هـ. (ينظر: تاريخ بغداد : 12 / 212 ، و وفيات الأعيان : 3 / 470 ، و الفهرست : 169).

لساجلتكَ هذه القطيعة ، ومادَدْتُكَ حبلَ المُصارَمة ، وأرجو أنَّ اللهَ تعالى يُديْلُ صبْري مِن جفائكَ ، فيردَّك إلى مودَّتي وأنفُ القلى راغِمٌ ، فقد طالَ العهدُ بالاجتماع ، حتَّى كدْنا نتناكرُ عند الالتقاء)[1].

نلحظ أنَّ عبارات النَّص ممزوجة بمعاني الشَّوق والحنين ، فالكاتب يشكو آلامه المريرة التي سبَّبتها قطيعة صاحبه له ، وذلك الجفاء الذي عجزَ الكاتب عن احتماله ، إذ لولا فرط محبَّتِه لصديقه ، لعامَلَه بالمِثْل ، فقطع وجفا. ولكنَّه لا يستطيع ذلك ، فلجأ إلى كتابة هذه الأسطر التي تُخْبِرُ عن عاطفَتِهِ الصَّادقة تجاهه.

ومنَ الواضح أنَّ الغرض من كتابة هذه الرِّسالة ليس تأنيب الكاتب لصديقهِ أو تهديده بالجفاء بقدَر ما هي برهانٌ مِنهُ على محبَّته له من خلال عِتابِه ، فقد تحمَّل الكاتب مرارة الجفاء والقطيعة على أمل عودة المودَّة بينهما إلى سابقِ عهدِها.

(4) سرح العيون (شرح رسالة ابن زيدون) ، جمال الدِّين محمد بن محمد بن نباتة المصري (ت768هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط 1 ، 1377هـ . 1957م : 144.

المبحث السَّادس

موضوعات أخرى :

لم تقتصر موضوعات الرسائل الإخْوانِيَّة على ما ذكرناه في الصفحات آنفة الذِّكر ، إذْ أنَّ هناك موضوعات أخرى تبدو أقلُّ شأناً من حيث اهتمام الكتَّاب بتناولها أو قلَّة الرسائل التي كُتِبت فيها ، فمن خلال اطِّلاعي على عدَدٍ من المصادر الأدبيَّة والتاريخية وقفتُ على رسائِلَ صنَّفْتُها على وفق موضوعاتها :

أوَّلاً : طلب الحاجة والاستمناح :

هناك عددٌ من الكتَّاب خاضوا في موضوع طلب الحاجة ومنهم مَنْ يعدُّ من أعلام العصر العَبَّاسِي الأوَّل في البلاغة والأدب ، بيدَ أنَّهم برعوا في تزويق عباراتهم ، وحاولوا تمرير طلبهم مع الاحتفاظِ بعزَّة النفْسِ ومراعاتِهم للكبرياء الذي التزموا به قدْرَ جهدِهم حين بعثوا برسائلهم البليغة.

وهذا عبد الله بن المقفَّع يكتب إلى صديقٍ له يستقضيه حاجةً فيقول:

(أمَّا بعدُ ، فإنَّ مَن قضى الحوائِجَ لإخْوانِه ، واسْتَوجَبَ بذلكَ الشُّكْرَ عليهِم ، فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ لا لَهُم ، والمَعْروفُ إذَا وضِعَ عند من لا يَشْكرُه فهو زَرْعٌ لا بُدَّ لِزارِعِه مِنْ حصادِهِ ، أو لِعَقْبِه

مِنْ بَعْدِه. وكَتَبْتُ إليكَ ، ولِحالِنا التي نَحْنُ بها فيما نذكر لكَ حاجَةٌ ، أوَّلُ ما فيها معروفٌ ، تَسْتَوجِبُ به الشُّكْرَ علينا ، وتَدَّخِر به الأيادِيَ قِبَلَنَا)[1].

نلحظُ في هذا النَّص الموجَز أنَّ الكاتِبَ كانَ ذَكِياً في طريقة عَرضِ مقاصدِهِ ، فَقَد بدأ بِمُقدَّمةٍ تضمَّنت نظرةً عامَّة حول مساعدة الأصدقاءِ لبَعضِهم وقضاءِ الحوائِج عند الطلب ، وما فيها من أهمِّيَةٍ بالغة ، وكانت هذه المقدَّمة جِسْراً للعبور إلى الطلب الخاص الذي من أجلهِ كتبَ رسالته ، فذَكَرَ أنَّ الصَّديقَ الذي يَقضي حوائِجَ إخْوانِه دون انتظارٍ لشُكرٍ مِنهُم أو عِرْفان فكأنَّما أدى معروفَهُ لِنَفْسِه ، فالخَيرُ عائِدٌ له لا مَحالة ، إذْ أنَّ المعْروفَ لا يَضيْعُ أبَداً حتَّى وإنْ لَم يَجِد صاحبَه من يشكُر له معروفه ، لأنَّه بمثابة الغَرسِ الذي لا بُدَّ أنْ يَجْني صاحِبُه من ثمرِهِ أو يَعودُ عليهِ بأجْرِ جُهْدِهِ في الزَرْعِ أو الغَرسِ ، ولكنَّ المُرْسِل ليس من النَّوع الذي لا يشْكُرُ المعروف ، فإنْ طالَ به العهْدُ واسْتقامَ له الأمرُ كانَ عوناً لصاحِبِهِ فيجازيهِ على معروفِهِ ، وكأنَّ صاحِبَه قد ادَّخر فيه خيراً إلى أجَلٍ غيرِ معلوم.

ولعلَّ أبرز من كتب في هذا الموضوع أيضاً الشَّاعر المترسِّل كلثوم بن عمرو العتَّابي في رسالةٍ بليغةٍ أرسلها العتَّابي إلى صديقٍ لهُ انتجعه في أيام شحيحة مجدبة قائلاً:

(أما بعدُ ، أطالَ اللهُ بَقَاءَك وجَعَله يمْتدُّ بِكَ إلى رِضْوَانِه والجَنَّة ، فَإنَّك كُنت عِنْدَنا روْضَةً مِن رِيَاض الكَرْم ، تَبْتَهِج النُّفُوس بِها ، وتَسْتَرِيح القُلُوبُ إليْهَا ، وكُنَّا نُعْفيها مِنَ النُّجْعة[2] **، استِتْمَاماً لِزَهْرَتِها ، وشَفَقَةً على خُضْرَتِها ، وادِّخَاراً لِثَمَرتِهَا ، حَتَّى أَصَابَتْنَا سَنَةٌ كَانَت عِنْدِي قِطْعَةً مِن سِنِيِّ يُوسُف ، اشْتَدَّ علينَا كَلَبُها ، وغابَت قِطَّتُها ، وكَذَبَتْنا غُيومُها ، وأخْلفَتْنا بُروقُها ، وفَقَدْنَا صَالِحَ الإخْوان فيها ، فانْتَجعْتُك ، وأنا بانْتِجاعِي إيَّاكَ شَدِيدُ الشَّفَقة عليك ، مَع عِلمي بِأنَّك مَوضِع الرَّائِد ، وأنَّك تُغَطِّي عَيْنَ الحَاسِد ، واللهُ يَعلَمُ أنِّي ما أُعِدُّك إلاَّ في حَوْمَةِ الأهْل.**

---

(1) جمهرة رسائل العرب : 3 / 60 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 392.

(1) النُّجْعة : طلب الكلأ في موضعه ، ومساقط الغيث ، وقصد ذي المعروف لمعروفه ، ويقال: هو نجعي موضع أملي ، وهذه ليست بدار نجعة غير صالحة للتحول إليها. (ينظر : تهذيب اللغة : 1 / 115 ، ولسان العرب ، مادة نَجَعَ : 8 / 347).

واعلمْ أنَّ الكَريْمَ إذَا اسْتَحْيَا مِن إعطاءِ القَلِيل ، ولَم يُمْكِنه الكَثِير لَم يُعْرَف جُودُه ، ولَم تَظْهَر هِمَّتُه وأنَا أَقُولُ[1] فِي ذَلِك[2]:

ظِـــلَّ اليَسَـــارِ عَلَـــى العَبَّـــاسِ مَمْـــدُودُ وقَلْبُـــهُ أَبَـــداً بِالْبُـــخْلِ مَعْقُـــودُ

إنَّ الكَـــرِيْمَ لَتَخْفَـــى عَنْـــكَ عُسْـــرَتُهُ حَتَّـــى تَـــرَاْهُ غَنِيَّـــاً وَهُـــوَ مَجْهُـــودُ

وَلِلْبَخِيـــلِ عَلَـــى أَمْوَالِـــهِ عِلَـــلٌ زُرْقُ العُيُـــونِ عَلَيْهَـــا أَوْجُـــهٌ سُـــودُ

إذَا تَكَرَّهْـــتَ أنْ تُعْطِـــي القَلِيْـــلَ ولَـــم تَقْـــدِر عَلَـــى سَـــعَةٍ لَـــم يَظْهَـــرِ الجُـــودُ

بُـــثَّ النَّـــوالَ ولا تَمْنَعْـــكَ قِلَّتُـــه فَكُـــلُّ مَـــا سَـــدَّ فَقْـــراً فَهُـــوَ مَحْمُـــودُ)[3].

كان دافع الكاتب من تحبيره لهذه الرِّسالة هو حاجتُه الشَّديدة إلى المساعدة بعد تعرُّضه لضائقةٍ اقتصاديَّةٍ قد عصفت به فاضْطرَّتْه إلى طلبِ الحاجةِ ، ولكنَّه طلبٌ صدرَ عن أديبٍ مترسِّل ، يعرف كيف يصوغ عباراتِه المؤثِّرة في الآخَر.

وتجدُ رسالته قد خرجت بأسلوبٍ بليغٍ ومؤثِّر ، ويقالُ أنَّ هذا التأثير قد جعل صديقهُ يشاطِرُهُ ماله حتى بعث إليه قيمة نصف خاتمه ، وأعطاه فرد نعله[4].

وهذا كاتبٌ آخر يشتكي من سوء الأحوال المادِّيَّة التي يمرُّ بها فيسْتنجد بأحد أصدقائه وهذا ما فعلهُ ابن السمَّاك إذ بعث[5] برسالةٍ موجزة إلى عمرو بن بانة[6] يقول فيها:

---

(2) (وأقول ما قال حمَّاد عجرد : ...) هكذا وردت هذه العبارة في غرر الخصائص الواضحة : 1 / 152.

(3) اعتمَدنا على ديوان بشَّار بن بُرد في تصحيح هذه الأبيات ، وهناك بيتٌ محذوفٌ يسبق البيت الأخير وهو:
أورِق بِخَيرٍ تُرَجَّى للنَّوَالِ فَمَا تُرْجَى الثِّمارُ إذَا لَمْ يُورِقِ العُودُ ... (ديوان بشَّار بن بُرد ، شرحه: محمد الطَّاهر ابن عاشور ، مراجعة وضبط: محمد شوقي أمين ، مطبعة لجنة التأليف والتَّرجمة . القاهرة ، 1376هـ . 1957م : 3 / 127).

(1) جمهرة الأمثال : 2 / 250 ، و الأمالي ، أبو علي القالي (ت 356هـ) ، تحقيق: الشَّيخ صلاح بن فتحي هَلَل . الشَّيخ سيِّد عبَّاس الجُلَيمي ، المكتبة العصرية ، صيدا . بيروت ، 1427هـ . 2006م : 389.

(2) ينظر : الأمالي : 390.

(3) الرِّسالة عند صاحب العقد الفريد منسوبة إلى إبراهيم بن سيَّابة. (ينظر : العقد الفريد : 1 / 176).

(4) عمرو بن بانة : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد ، وعُرِف بابن بانة نِسبَةً إلى أُمِّهِ. كان مغنِّياً مجيداً وشاعراً صالح الشعر ، أخذ الغناء عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي وغيره ، وهو معدود في ندماء الخلفاء ومغنِّيهم ، وكان خصِّيصاً بالخليفة المتوكل ، آنساً به ، وله كتاب في الأغاني ، توفِّيَ سنة 278هـ. (ينظر : الأغاني : 15 / 260 ، و الفهرست : 207).

(إنَّ الدَّهر قد كَلَحَ فَجَرح ، وطَمحَ فجَمح ، وأفسد ما صَلَح ، فإن لم تُعِنْ عليه فَضَح)[1].

واضحٌ أنَّ الأسلوب البلاغي كان متَّبعاً في الرسائل التي تناولت هذا الموضوع ، إذ أنَّ هذه الرِّسالة عبَّرت عمَّا يريد الكاتب أنْ يقوله بإيجازٍ شديد ، ولكنَّه إيجاز غير مُخِلٍّ بالغرض الذي من أجله كُتبت الرِّسالة ، وقد تفنَّن الكاتب في صياغة عباراته بأسلوب السَّجع الذي اعتمدَهُ ليُضفي على الرِّسالة نوعاً مِنَ الاستظراف الذي يُخفِّفُ مِنْ وطئ موضوعها الذي تناولته ألا وهو طلب الحاجة أو بمفهوم آخر (الاستمناح) ، وفي مثل هذه الرسائل يتوجب على كاتبها أنْ يُنمِّقَ عباراته ويحاولُ من خلالها استمالة الطرف الآخر وجعله في موازاة تجربته الشعورية التي يمرُّ بها وهو أمرٌ غير يسير على كثيرٍ من النَّاسِ ومنهم الكتَّاب.

ثانياً : الشُّكْرُ :

هناك موضوعٌ آخر تناوله بعض كتَّاب العصر العَبَّاسِي ، وهو موضوع **الحمد والشُّكر** ، وهناك فرقٌ بين معنى الحمد والشُّكر ، إذْ (أنَّ الحمدَ أعمُّ مِن الشُّكر ، لأنَّ الشُّكر : إنَّما هو الثَّناءُ بالفعل الجميل الذي وصل إليك نفعه. والحمد : الثَّناءُ بالفعل الجميل وإنْ لم يصل إليك نفعه)[2]. وعلى هذا الوصف يكون **الشُّكر** هو الموضوع الذي تناولته رسالة إسماعيل بن صبيح[3] التي كتبها[4] إلى يحيى بن خالد البرمكي يشكره بقوله :

(في شكرِ ما تقدَّم من إحسانِ الأميرِ شاغلٌ عن استبطاءِ ما تأخَّر منه)[5].

---

(5) لباب الآداب ، أسامة بن منقذ (ت 584هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر : 343 ، و تاريخ بغداد : 5 / 371.

(1) البرهان في وجوه البيان : 281.

(2) إسماعيل بن صبيح : هو إسماعيل بن صبيح اليشكري الكوفي ، كان على ديوان الرسائل والتوقيع والسِّر وضياع الخاصة للخليفة هارون الرشيد. كان كاتباً حافظاً بليغاً ومِنْ أحسن الناس خطاً وأسرعهم يداً ، توفِّيَ في زمن الخليفة المأمون سنة 217هـ. (ينظر : تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الفكر . بيروت ، ط 1 ، 1404هـ . 1984م : 1 / 267 ، و الوافي بالوفيات : 1212).

(3) نسبت هذه الرِّسالة في كتاب زهر الآداب وثمر الألباب إلى أبي علي البصير : 3 / 435.

(4) خاص الخاص ، أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ) ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت . لبنان ، 1966م : 7.

نجِدُ أنَّ الكاتب قدَّم الشُّكر على العتاب والشِّكوى ، إذْ أنَّه جمع بينهما فأجاد ذلك ببراعة ، وممَّا يؤكِّد براعته وإيجازه البليغ في هذه الرِّسالة قول الثعالبي : (لم أقرأ ولم أسمع في الجمع بين الشُّكر والشِّكاية في فصل قصير أحسن وأظرف وأبلغ وأوجز مما كُتِبَ إلى يحيى بن خالد)[1].

وكتب أحمد بن يوسف يشكرُ أحد أصدقائه:

(لم يُخْطِئنِي مِنَ النِّعَمِ مَا أصابَكَ ، ولا عَدَانِي مِنْهَا مَا حَلَّ بِكَ ، ولا خَلوتُ مِن واجِبِ حَقِّها وما نَفَلَكَ اللهُ منها إذْ قُلِّدْتها ، اعْتِداداً مِنِّي بِمَا طُوِّقْتُ مِنَ المِنَنِ ، وإيْجاباً على نَفْسِي لِمَا حَمَلْتُ مِنَ الشُّكْرِ)[2].

فهذه رسالة شكرٍ وامتنانٍ ، وهي اعترافٌ من الكاتب بفضل صديقه عليه ، وحِرْصِه على أداءِ واجب الشُّكر إليه ، فقد شعر الكاتب أنَّ هناك دَيناً في عنقِهِ عليه أنْ يؤدِّيه إلى صديقه فشكره من خلال ذلك.

ومِنْ رسائل **الحَمْد** ما كتبه عبد الله بن المقفَّع ، إذْ يحْمدُ اللهَ عزَّ وجَلَّ في إحدى رسائِلِه قائِلاً:

(الحَمْدُ للهِ ذي العَظَمةِ القَاهِرَة ، والآلاءِ الظَّاهِرَة ، الَّذي لا يُعْجِزه شيءٌ ولا يَمْتَنِع مِنْه، ولا يُدْفَعُ قَضَاؤُهُ ولا أَمْرُه: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[3] **والحَمْدُ للهِ الَّذي خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ ، وَدَبَّرَ الأمورَ بِحُكْمِهِ ، وَأَنْفَذَ فِيمَا اخْتَارَ واصْطَفى مِنْها عَزْمَه ، بِقُدْرَةٍ مِنْهُ عَلَيْهَا ، وَمَلَكَةٍ مِنْهُ لَها ، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، ولا شَرِيكَ لهُ في شَيءٍ مِنَ الأمورِ ، يَخلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كانَ للنَّاسِ الخِيرَةُ في شيءٍ من أُمورِهِم ، سُبْحانَ اللهِ وَتَعَالَى عمَّا يُشْرِكونَ ...)**[4].

نجدُ أنَّ النَّص قد اشتمل على حمد الله والثَّناءِ عليهِ من خلال ذكر صفاتِهِ سُبحانه وتعالى ، والإشارة إلى أنَّه وحده الذي يُصرِّفُ الأمور ويحكُمُ بما يشاءُ وما على النَّاس إلاَّ الانقياد إلى

---

(5) م.ن : 7.

(6) جمهرة رسائل العرب : 3 / 450 ، نقلا عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 380.

(1) سورة يس : الآية 82.

(2) جمهرة رسائل العرب : 3 / 53 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 282.

أوامِرِهِ سواءٌ كان انقيادهم طوعاً أو كُرْهاً. وهذا النَّص يُبيِّنُ الحالة الإيمانية التي وصل إليها الكاتب عندما حاول أنْ يتدبَّر ويتذكر قدرة الله على النَّاسِ جميعاً.

وبَعْدَ تَحمِيدِ الله سُبْحانَهُ وتعالى في رِسالة ابن المُقفَّع يلْقانَا الكاتِب غسَّان بن عبد الحميد برِسالتِهِ التي يحْمدُ الله تعالى على نِعمة المَطَر إذْ يقولُ فيها :

(الحَمْدُ للهِ الَّذي نَشَرَ رَحْمَتَهُ فِي بِلادِهِ ، وَبَسَطَ سَعَتَهُ على عِبَادِهِ ، الَّذي لا يَزَالُ العِبادُ مِنْهُ في رِزْقٍ يَقْتَسِمونَهُ ، وَفَضْلٍ يَنْتَظِرونَهُ ، لا يَنْقُصُه ما قَبْلَهُ ، ولا يَنْقَضِي ما بَعْدَهُ)[1].

إنَّ نعمة المطر هي واحِدةٌ من بين تلك النِّعَم التي منَّ الله بها على النَّاس سواءً أكانوا مؤمنين أم كفَّاراً جاحدين للنِّعمة ، فحَريٌّ على كاتب هذا النَّص أنْ يكون من الشَّاكرين لأنَّهُ منَ الذين منَّ الله عليهم بنعمة الإيمان ، وهذا يبدو ظاهِراً من خلال ما سطَّرَهُ في ذلك النَّص.

ثالثاً : الهدايا :

لقد أكْثر بعض الكتَّاب من الكتب والرَّسائل التي يُرفِقونها مع **الهدايا** التي كانوا يرسِلونها إلى بعض الوزراء وأصحاب السُلطان أو إلى بعض أصدقائهم ، وكانوا يختارون مناسبةً سعيدةً مثل ختان بعض الأولاد[2] أو مناسبة العيد أو المهرجان وعيد النيروز ، وغيرها.

ومن الرسائل التي تناولت موضوع الهدايا رسالة أحمد بن يوسف الذي يُعدُّ أوَّل من افتتح المكاتبة في التَّهنئة بعيد النيروز والمهرجان فقد أهدى إلى المأمون سِفْطَ ذَهَب ، فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه[3] ، وكتب معها رسالةً يقول فيها :

(هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العيد والسعادة ، وقد قلت:

عَلَى العَبْدِ حَقٌّ فهُوَ لا بُدَّ فَاعِلُه وإنْ عَظُمَ المَولَى وجَلَّت فَضَائِلُه
أَلَم تَرَنَا نُهدِي إلى اللهِ مَالُه وإنْ كَانَ عَنْهُ ذَا غِنَى فَهُوَ قَابِلُه
وَلَو كَانَ يُهدَى للجَلِيْلِ بِقَدْرِهِ لَقَصُرَ عَل البَحْرِ عَنْهُ ونَاهِلُه
ولَكِنَّنَا نُهْدِي إلَى مَنْ نُجِلُّه وإنْ لَمْ يَكُن فِي وِسْعِنَا مَا يُشَاكِلُه)[1].

---

(3) جمهرة رسائل العرب : 3 / 121 ، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور : 13 / 282.

(1) ينظر : تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 499.

(2) ينظر : الأوائل ، أبو هلال العسكري (ت 395هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط 1 ، 1407 هـ . 1987م : 238.

لقد عبَّر الكاتِبُ مِنْ خلال هذه الرِّسالة عن سعادتِهِ بهذه المناسبة التي تعوَّدَ ومجْتمعه أنْ يحتفلوا بذكْراها ويتبادلوا الهدايا لأجلها ، وكذلك جدَّدَ ولاءهُ للخليفة المأمون ، وأكَّدَ على إخْلاصِهِ وطاعتِهِ له مِنْ خلال تقديرِهِ لِمكانةِ الخليفة ، فتبْقى الهديَّة رمزاً لِمحبَّةِ الكاتبِ للخليفة.

(ومن ظرائف الهدايا التي هي من أحسن ما يسطَّر في الصحف ويذكر ، ما يروى أنَّ يحيى بن خالد بن برمك عزم على ختان ولده فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته فصنع بعض المتجملين العاجزين خريطتين وملأَ إحداهما ملحاً مطيباً وملأَ أخرى سُعْداً معطراً وكتب معهما رقعة)[2] يقولُ فيها :

(لو تمَّتِ الإرادةُ لأَسْعَفَتُ بالعَادَة ، ولو سَاعَدَتِ المَكْنَة على بُلوغِ الهِمَّة لأتْعَبتُ السَّابِقينَ إلى بِرِّكَ ، وتَقدَّمْتُ المُجْتَهِدينَ في كَرامَتِكَ ، لكنْ قَعُدَتِ القُدْرَةُ عَنْ البُغْيَة ، وقَصَّرتِ الجِدَّةُ عن مُبَارَاةِ أهْلِ النِّعْمَة ، وخِفْتُ أَنْ تُطْوَى صَحائِفُ البِرِّ ، ولَيسَ لِي فِيْهَا ذِكْرٌ ، فَأَنْفذْتُ المُبْتَدِأَ بِيُمْنِهِ وبَرَكَتِهِ ، والمُخْتَتَمَ بِطَيْبِهِ ونَظَافَتِهِ ، صَابِراً على أَلَمِ التَّقْصِير ، ومُتَجَرِّعاً غُصَصَ الاقْتِصَارِ على اليَسِير: فَأَمَّا مَا لَم أجِدْ إليه السَّبيلَ في قَضَاء حَقِّكَ فالقَائِمُ فيهِ بِعُذْرِي قَولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ...)[3]. والخادِمُ ضَارِعٌ في الامْتِنَانِ عَلَيْهِ بِقَبُولِ خِدْمَتِهِ ومَعْذِرَتِهِ والإحْسَانِ إليهِ بِالإعْرَاضِ عَنْ جَراءَتِهِ)[4].

عبَّرَت هذه الرِّسالة عن ظرافةِ كاتبها من جهة ، وكشفت عن قلَّة إمكانيته المادية من جهة أخرى ، واستطاع . بقصدٍ منه أو بغير قصد . أنْ يجعلَ من هديَّتِه سبباً لينالَ عطاءَ يحيى بن خالد البرمكي الذي قرأ الرِّسالة واسْتظرف الهديَّة ، وأمر أن يُفْرغَ الإناءَينِ ويُملأْ أحدهما دنانير والآخر دراهم[5] ، وهذا يدلُّ على إعجابه (بتلطُّف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه)[6].

---

(3) م.ن : 238.

(4) غرر الخصائص الواضحة : 1 / 249.

(1) سورة التوبة : الآية 91.

(2) غرر الخصائص الواضحة : 1 / 249. و التذكرة الحمدونية : 2 / 44.

(3) ينظر : غرر الخصائص الواضحة : 1 / 249.

(4) تاريخ الأدب العربي (العصر العَبَّاسِي الأوَّل) : 499.

ويَسْتمرُّ كُتَّاب بني العبَّاس بالسَّيرِ على المِنْوالِ نَفْسِهِ فهذا إبراهيم بن المهدي يُرْسِل إلى صديق له ، يقول :

(لَو كانت التُّحْفةُ لكَ على حَسبِ ما يُوجبُ حقُّكَ لأجْحَفَ بِنَا أدْنى حَقٍّ مِنْ حُقُوقِكَ ، ولكنَّها على قَدَرِ ما يُخْرِجُ الوَحْشَةَ ، ويُوجِبُ الأَنَسَ ، وقد بَعَثْتُ إليكَ بكذا وكذا)[1].

حرص الكاتب في رسالته الموجَزَة على دقَّة التعبير ، وقد وصف هديَّته بأنَّها لا تكافئ استحقاق صَديقَهُ ، ولم يقصد بها مجازاتَهُ إذْ لا يمكنُ لأيِّ هديَّةٍ أنْ توَفِّي جزءاً يسيراً من حقوقهِ ، مهما بلغ ثمن تلك الهدية ومكانتِهَا.

رابعاً : الدَّعوة للزيارة :

وهو موضوع آخر تطرَّق إليه بعض الكتَّاب في هذا العصر ونقصد به موضوع **الدَّعوة إلى الزِّيارة لقضاءِ بعض الوقت في اللهو أو سماع المغنِّين والقيان ، أو في المُسامرة المسْتحبَّة ،** وممَّا صوَّرَ ذلك من بعض الوجوه ، دعوة الحسن بن سهل[2] للحَسَنْ بن وَهَبْ كي يَصْطبِح معه في يوم غائم غير ممطر[3] ، إذْ يقول :

(أمَا تَرَى تَكَافُؤَ هذا الطَّمَع واليَأْسِ فِي يَوْمِنَا هذا بِقُرْبِ المَطَر وبُعْدِه ، كَأنَّه قَولُ كُثيِّر:

وإنِّـــي وَتَهْيـــامي بعَـــزَّةَ بعـــدَما تَخَلَّيـــتُ مِمَّـــا بينَنَـــا وتَخَلَّـــتِ

لكـــالمرتَجِي ظِـــلَّ الغمامـــةِ ، كلَّمـــا تَبَـــوَّأَ منهـــا للمَقيـــل اضـــمحلَّتِ[4]

---

(5) لباب الآداب : 337.

(1) الحسن بن سهل : هو أبو محمد الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي ، تولَّى الوزارة للخليفة المأمون بعد أخيه ذي الرياستين الفضل بن سهل ، وحظي عنده ، والحسن هو والدُ بوران زوجة الخليفة المأمون. وكان المأمون قد ولاَّه جميع البلاد التي فتحها طاهر بن الحسين ، وكان الحسن عالي الهمَّة كثير العطاء للشعراء ، تـــوفِّيَ ســـنة 236هـــ. (ينظـــر : تـــاريخ الرُّســـل والملـــوك : 5 / 312 ، و وفيـــات الأعيـــان : 2 / 120).

(2) ينظر : قطب السرور في أوصاف الخمور ، الرقيق القيرواني (ت 417هـ) ، تحقيق: أحمد الجندي ، مطبوعات مَجْمَع اللغة العربيَّة بدمشق : 50.

(3) ينظر : ديوان كُثيِّر عزَّة ، جمعه وشرحه الدكتور إحسان عبَّاس ، دار الثَّقافة ، بيروت . لبنان ، 1391هـ . 1971م : 103.

وما أُمنيَّتي إلاَ في لقائك ، ورقعَتي هذه ، وقد أَدَرْتُ زُجَاجَاتٍ أخَذَتْ مِنْ عقْلِي ولم تَتَحيّفه، وبعثَت نشاطاً حركني على الكِتَابْ؛ فرأيك في إمطاري سروراً بِسَارِّ خَبرك؛ إذْ حُرِمت السرور بمَطَر هذا اليوم ، موفَّقاً إن شاء الله)[1].

يدعو الكاتب صديقه إلى زيارته لأنَّه متشوِّقٌ إليه وإلى المطر ، وذلك لاستمالته وجعلهِ يُسْرِع في الحضور والمشاركة في الجلسة التي قد أعدّها لمثلِ هذا اليوم. وعلى الشاكلة نفسها يلْقانا سعيد بن حميد[2] الذي كتب إلى محمد بن مكرَّم يدعوه إلى مجلس أنسه ، فيقول : **(طَلَعَتِ النُّجومُ تَنْتَظِرُ بَدْرَهَا ، فَرَأْيُكَ في الطُّلُوعِ قَبْلَ غُرُوبِهَا)**[3].

يحاول الكاتب في هذا النَّص الموجَزْ دعوةَ صديقِهِ ولكنَّها دعوةٌ مُتَميِّزة ، إذْ يصِفُ نفسَهُ ومَن كان حاضِراً معهُ بالنجوم الَّتي تنتظرُ البدر ليُنيرَ السَّماء وكأنَّه وضع صَّديقه في منزِلةٍ لا يستطيع رفضها أو التخلي عنها ، وكذلك حضَّه على الإسراع في الحضور عندما قال: (فرأيك في الطلوع قبل غروبها).

ومِنَ الجديرِ بالذِّكر أنَّ عدداً مِنَ الكتَّاب العبَّاسِيِّين قد تأثَّروا بِأُسْلوب التَّوقيعات التي هي نوعٌ مِنْ أنواعِ النَّثر العَبَّاسِي وكانت خاصَّةً بِشؤون الخِلافة والدَّولة ، فعلى مِنْوالِها في الإيجاز ما كتبه أحمد بن يوسف إلى صديق له يدعوه إلى قضاء بعض الوقت قائِلاً :

(يومُ الإلتقاءِ قَصِيرٌ فَأعِنْ عَلَيْهِ بِالبُكُور)[4].

هذه رسالةٌ موجزة تقصِدُ إلى إشْعار المُرْسَل إليهِ بأهميَّة الحضور باكِراً ، لأنَّ ساعات الالتقاء ما بين الأصحابِ تبدو قليلةً بالنسبة إليهم ، وكذلك الأوقات السَّعيدة ، تبدو قصيرةً.

خامساً : استنجاز الوعد :

ومن الموضوعات الأخرى للرسائل الإخْوانِيَّة هو **استنجاز الوعد** ، ومنها ما كتبه كلثوم ابن عمرو العتَّابي إلى بعض أهل السلطان ، قائلاً :

---

(4) قطب السرور في أوصاف الخمور : 50.

(1) سعيد بن حميد : هو سعيد بن حميد بن سعيد بن حميد بن بحر يكنى أبا عثمان ، ولد في بغداد ونشأ فيها، ثم كان يتنقل في السكنى بينها وبين سرَّ من رأى ، وهو كاتب مترسِّل مِنَ الشُّعراء حَسَن الكلام فصيح، توفِّيَ في زمن الخليفة المسْتعين بالله سنة 250. (ينظر : الأغاني : 18 / 159).

(2) خاص الخاص : 9.

(3) م.ن : 8.

(أمَّـا بعـد ، فـإنَّ سَـحَائِبَ وَعْـدِكَ قَـدْ أَبْرَقَـت ، فَلْـيَكُن وَبلهـا سَـالِماً مِـن عِلَـلِ المَطْـلِ ، والسَّلام)[1].

هذه رسالة بليغةٌ وموجزة عبَّرت عن الهدف المنشود منها ، فالكاتب يُذَكِّرُ المُرْسَل إليهِ بأنَّ وعْدَهُ قَد اسْتَحَقَّ الوفاءَ بهِ ، فعليهِ أنْ لا يُماطِلَ في وَعْدِهِ الذي قَطَعَهُ فَيَكونُ كالسَّحابَةِ التي يَصْحِبُها البَرْقُ فَيَتَوَقَّعُ الناظِرُ إليها أنْ تَأْتِيَ بالغَيث ، فهو رمزُ الخيرِ ، وإذا غابَ أو انْقَطَعَ تَسَبَّبَ في قَحْطِ الزَّرْعِ وهَلاكِ الأحياءِ.

وفي الموضوع نفسه الذي تناولته رسالة العتَّابي وقريباً من معناها ما كتبه الجاحظ إلى رجل وعدهُ وتأخَّر في إنجاز وعْدِهِ فبعثَ إليهِ الجاحظُ برسالةٍ يقول فيها :

(أمَّـا بعـد ، فـإنَّ شَـجَرةَ وَعْـدِكَ قَـد أَوْرَقَـت ، فَلْـيَكُن ثَمَرُهَـا سَـالِماً مِـن حَـوَائِجِ المَطْـل ، والسَّلام)[2].

سادساً : رسائل طريفة :

وهناك رسائل اخوانية ذات **طابع طريف** أقرب في معانيها إلى المزاح عمَّا هي إلى الجِدِّ ، إذْ يُروى أنَّه لما مات قِرْدٌ صغيرٌ كان للسيِّدة زُبيدة بنت جعفر (أمُّ الأمين) ساءها ذلك ، ونالها من الغمّ ما عَرَفه الصغير والكبير من خاصَّتها ، فكتب إليها أبو هارون العبديُّ رسالةً ظريفةً يقول فيها : **(أيَّتها السَّيِّدةُ الخَطِيرة ، إنَّ موقعَ الخَطْب بِذَهابِ الصَّغِيرِ المُعْجِب كَمَوقِعِ السُّرورِ بنيْلِ الكَثيرِ المُفرِح ، ومَن جَهِلَ قَدْرَ التعزية عن التافِهِ الخفي ، عَميَ عن التَّهنِئَـة بالجليل السَّنيّ ، فلا نَقَصَكِ الله الزائدَ في سرورِكِ ، ولا حَرَمَكِ أجرَ الذَّاهِب من صَغِيرِكِ)**[3].

تُعدُّ هذه الرِّسالة من طرائفِ الأدبِ ، إذ أنَّ الكاتِبَ لم يقْصِد تعْزية السيِّدة زبيدة بموت قردها الصَّغير ، أو محاولة إظهار الحزن عليه في رسالته ، وإنَّما قصد إضحاكَها[4] وتسْليتَها عمَّا أصابها ، ويبدو أنَّه نجح في ذلك. إذْ أمرتْ له بجائزةٍ[5].

---

(4) العقد الفريد : 1 / 70.

(1) العقد الفريد : 1 / 70.

(2) زهر الآداب وثمر الألباب : 4 / 1032.

(3) ينظر: بلاغة الكتَّاب في العصر العَبَّاسِي : 126.

(4) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب : 4 / 1032.

سابعا : التَّشْبيب :

من الموضوعات التي تطرَّق إليها بعض كتَّاب العصر العَبَّاسِي موضوع **التَّشبيب** ، فهناك من الكتَّاب من اتَّخذ من النثرَ فناً في التعبير عن التشبيب فوقع نَثْرُهُ موقع القبول ، ففي رسالة الجاحظ التي أرسلها إلى إبراهيم بن المدبِّر[1] دليل على أنَّ النَّثر يصلح أيضاً للمعاني الغرامية[2] وقد روى عبد الله بن جعفر الوكيل فقال: كنت يوماً عند إبراهيم بن المُدَبِّر فرأيت بين يديه رقعة يردد النظر فيها فقلت له : ما شأن هذه الرقعة؟ كأنه استعجم عليك شيء منها؟ فقال: هذه رقعة أبي عثمان الجاحظ ، وكلامه يعجبني وأنا أردده على نفسي لشدة إعجابي. فقلت: هل يجوز أن أقرأه؟ قال: نعم وألقاها إليَّ فإذا فيها :

(مَا ضَاءَ لي نَهَارٌ ولا دَجَا لَيْلٌ مُذْ فَارَقْتُكَ ، إلاَّ وَجَدْتُ الشَّوقَ إليكَ قَدْ حَزَّ في كَبِدِي ، والأسَفَ عَلَيكَ قَدْ أَسْقَطَ في يَدِي ، والنِّزَاعَ نَحْوَكَ قَدْ خَانَ جَلَدِي ، فَأنَا بينَ حَشَاً خَافِقَة ودَمْعَةٍ مِهْرَاقَة ، ونَفْسٍ قَدْ ذَبُلَت بِمَا تُجَاهِد ، وجَوَانِحٍ قَدْ أُبْلِيت بِمَا تُكَابِد ، وذَكَرتُ وأنَا على فِرَاشِ الارْتِمَاض مَمْنوعٌ مِن لَذَّةِ الإغْمَاضِ قَولَ بَشَّار:

إذَا هَتَـــفَ القُمْـــرِيُّ نَـــازَعَنِي الهَـــوَى بِشَـوقٍ فَلَـم أَمْلِـك دُمُـوعِي مِـنَ الوَجْـدِ

أبَـــــى اللهُ إلاَّ أنْ يُفَـــــرِّقَ بَينَنـــــا وكنَّـا كَمـاءِ المُـزْنِ شِـيْبَ مَـعَ الشَّـهْدِ

لَقَـدْ كَـانَ مَـا بَينِـي زَمَانَـاً وبَيْنَهـا كَمـا كـانَ بَـينَ المِسْـكِ والعَنْبَـرِ الـوَرْدِ[3]

فَانْتَظَم وَصْفَ ما كنَّا نَتَعَاشَرُ عَلَيهِ ، ونَجْري في مَودَّتِنَا إليهِ فـي شِعرِهِ هَذَا ، وذَكَرْتُ أيْضاً مَا رَمَانِي بِه الدَّهر مِنْ فُرْقَةِ أعِزَّائِي مِن إخْوَانِي الذينَ أنتَ أعَزَّهُم ، ويَمْتَحِنَنِي بِمَن نَـأَى مِنْ أَحِبَّـائِي وخُلَصَـائِي الـذينَ أنـتَ أحَبَّهُم وأخْلَصَـهُم ، ويُجْرِعْنِيـهِ مِـنْ مَـرَارَة نَـأْيِهِم ويُعْدِ لِقَـائِهِم ،

---

(1) إبراهيم بن المدبِّر : هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبِّر ، وهو وزير المعتمد بالله ، كانَ أديباً فاضِلاً، وصاحِبَ نُظُمٍ رائِق ، توفِّيَ سنة 279هـ. (معجم الأدباء : 1 / 32).

(2) ينظر : النَّثر الفنِّي في القرن الرابع : 1 / 26.

(3) هذهِ الأبيات من قصيدة لِبشَّار بن بُرد قالَها في حبيبتِهِ (صَفراء) ، وقد ذَكَرَها الجاحِظُ غير مرتَّبةٍ في رسالته هذه حيث حصلَ تقديمٌ وتأخيرٌ في الأبيات. (ديوان بشَّار بن بُرد ، جمع وتحقيق وشرح الشَّيخ محمد الطَّاهر ابن عاشور ، الشَّركة التُّونسيَّة للتوزيع . تونس ، والشَّركة الوطنية للنَّشر والتَّوزيع . الجزائِر ، 1976م : 2 / 218).

وسَألْتُ اللهَ أَنْ يُقْرِنَ آيَاتَ سُرُورِي بِالْقُرْبِ مِنْكَ ، ولِينَ عَيْشِي بِسُرْعَةِ أَوْبتِك ، وقُلتُ أبياتاً تَقْصُرُ عَنْ صِفَةِ وَجْدِي ، وَكُنْهِ مَا يَتَضَمَّنُهُ قَلْبِي ، وهِي:

بِخَـــدِّي مِـــنْ قَطْـــرِ الدُّمُـــوعِ نُـــدُوبُ وَبِالقَلْـــبِ مِنِّـــي مُـــذْ نَـــأَيْتَ وجيـــبُ

وَلِـيَ نَفْـسٌ حتَّـى الـدُّجَى يَصْـدَعُ الحَشَـا وَرَجْـــعُ حَنِيـــنٍ لِلْفُـــؤَادِ مُـــذِيبُ

وَلِـيَ شَـاهِدٌ مِـنْ ضُـرِّ نَفْسِـي وَسَـقْمِهِ يُخْبِـــرُ عَنِّـــي أَنَّنِـــي لَكَئِيـــبُ

كَأَنِّـــي لَـــمْ أُفْجَـــعْ بِفُرْقَـــةِ صَـــاحِبٍ وَلا غَـابَ عَـن عَيْنِـي سِـوَاكَ حَبِيـبُ)[1].

فقال عبد الله بن جعفر الوكيل بعدما قرأ رسالة الجاحظ : (فقلت لأبن المدبر: هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم، ورقعة غائب لا رقعة حاضر. فضحك وقال: نحن ننبسط مع أبي عثمان إلى ما هو أرق من هذا وألطف، فأما الغيبة فإننا نجتمع في كل ثلاثة أيام وتأخر ذلك لشغل عرض لي فخاطبني مخاطبة الغائب، وأقام انقطاع المدة مقام الغيبة)[2].

ومِنْ خِلالِ قراءة هذهِ الرِّسالة يمكننا أنْ نُحِسَ بالشُّعورِ الإنْسانيِّ النَّبيلِ الذي يربطُ الكاتِب بالمُرْسَلِ إليهِ ، وهذا الشُّعورُ كانَ قائِماً على أساس الإحترام والتَّقدير المتبادل بينَهُما ، بعيداً عن الابتذالِ والاستِخْفاف.

ويرى بعض الباحثين أنَّ هذه الرِّسالة مع غيرِها مِنَ الرَّسائِل الإخْوانيَّةِ في الموضوعات الأخرى، عن صِدْقِ العاطِفة وقوَّةِ التَّماسُك الاجتماعي فيما بينَ كتَّابِها بَعْضهم مع بعض[3].

تلك هي أبرز الموضوعات التي تناولها معظم الكتَّاب في العصر العَبَّاسِي الأوَّل حتَّى سيطرة بني بويه على بغداد سنة (334هـ) ، وممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ هذه الموضوعات قد أثْرت مجال الكتابة الفنِّيَّة وبالذَّات الرسائل الإخْوانِيَّة التي تبادلها الكتَّاب فيما بينهم إمَّا ليعبِّروا من خلالها عن قدراتهم في الكتابة والتَّعبير ، أو أرسلوها لدواعٍ عاطفيةٍ وأمورٍ شخصيَّة كما سبق أنْ

(1) معجم الأدباء : 2 / 222. و نشوار المحاضرة ، القاضي التنوخي (ت 384هـ) ، تحقيق: عبود الشالجي ، دار صادر . بيروت ، 1392هـ . 1972م : 4 / 68.

(2) م.ن : 2 / 222.

(3) ينظر : النَّثر الفنِّي في القرن السَّادس الهجري (أشكاله ومضامينه) ، يسرى إسماعيل الشَّريفي ، إشراف الدُّكتور محمد قاسم مصطفى ، أطروحة دكتوراه ، كليَّة الآداب . جامعة الموصل ، 1416 هـ . 1995م : 105.

أشَرْنا إليها في هذا الفصل ، وتكْمُن الأهميَّةُ في تنوُّع هذه الموضوعات أنَّها شاركت الشِّعر في كثيرٍ من مضامينه التي كانت تقتصرُ عليه دون الرسائل الإخْوانِيَّة ، فخرجت هذه الرسائلُ من بوتقة الدواوين لتلقى مجالاً رحباً بين الكتَّاب المتميِّزين في عصرهم، إذْ بَرَعوا في أداءِ المعاني التي يرومونها ، ونجحوا في تجسيد مشاعرهم والوقوف على تخيُّر تلك المعاني وأدائِها بعباراتٍ بليغةٍ تمكَّنوا من خلالها أنْ يأْسَروا قلب المتلقِّي ويجعلوه على خطٍّ موازٍ لهم فيحْزن لحزنهم ، ويفرح لفرحهم.

Abstract

We have chosen the title " Al-Ekhwania epistles in First Abbasid Period / Technical study " after presenting the subject matter to the headship of Arab language Dept. and the committee of high studies . We have aimed at selecting most of Al-Ekhwania epistles (the informal) which had been exchanged by Al-Ekhwan (the brothers) and other writers , ministers , and caliphs –sometimes - for personal reasons unrelated to formal matters . We have limited the period from 132 A.H. to 335A.H. the year in which Baghdad , the Abbasid capital , being occupied by Bani Bowaih . The cause of choosing this subject has been the availability of prosaic and poetic texts which were written in the period covered by the study , and revealed the significance of studying and taking care of them for they are considered another aspect of Arabic eloquence in its fruitful period (i.e. the Abbasid period) .

We have observed that Al-Ekhwania epistles in this period , which we chose it , deserved to be studied from different aspects .In addition , they should be paid more attention and research by the researchers in the technical Arab prose in Abbasid period – the age of Arabic eloquence and culture .So I have chosen this subject after consulting the supervisor (the assist. Prof. Dr. Sahira M. Younis Al-Hubaiti , as well as consulting the specialists in this field of study like Dr. Ahmad Hussein Al-Sadani , Dr. Aamer Hasawi and Dr. Ali Kama-al-Din Al-Fahadi and others in Arabic language Dept. / college of Arts , and college of education , fundamental education . We have concluded that the subject has not been studied separately yet – as I know , then I decided to register my subject to be a partial requirement for M.A. degree in Arab literature .